7

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾



مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
السلسلة: موازين القرآن.
اسم الكتاب: وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا – كيف يعيد القرآن الصلة بالمال؟
رقم الكتاب في السلسلة: السابعة.
الإصدار الإلكتروني الأول: 1448هـ / 2026م
© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
ويرحّب المركز بإعادة توزيع ا ونشرها كما هي، دون تعديل أو حذف أو إضافة، بعد الحصول على موافقة خطية مسبقة من المركز.
هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0).
يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه ومشاركته وإعادة نشره لأغراض غير تجارية، مع ضرورة الإشارة إلى صاحب الحقوق والمصدر، وعدم توزيع أي نسخة معدلة أو مترجمة منه دون الحصول على إذن.
رابط الترخيص:
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar
النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب
https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/othbon-almal-hba-gma
لا يشمل الترخيص أي مواد مملوكة لأطراف أخرى إلا إذا صُرّح بذلك.
إعداد السلسلة
مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية
الإشراف العلمي على المركز
أ.د. عبدالله آل سيف
الفريق العلمي للمركز
د. عبدالله سالم باهمام
د. صهيب لموح
د. شادية عبدالله بابكر
إسلام موسى
عادل بافرج
المراجعة والتحكيم العلمي
خضعت كتب السلسلة للمراجعة والتحكيم العلمي على أيدي مجموعة من الأكاديميين والمختصين.
كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك

وتحبون المال حبًّا جمًّا — هذا الكتاب

- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

بين يدي السلسلة والكتاب

الحمد لله الذي جعل المال للناس قيامًا، وجعله لهم ابتلاءً، ورزق منه من شاء بقدر، وجعل في أموال عباده حقوقًا لا تسقط، وأبوابًا إلى رضوانه لا تُغلق. والصلاة والسلام على رسوله الذي كان أجودَ الناس بما في يده، وأزهدَهم فيما في أيدي الناس، وعلى آله وصحبه.

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية للعلوم الإنسانية والإسلامية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤية صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع، من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة موازين القرآن: مشروعًا تأليفيًا يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحيٌ مبين تأتي شارحةً ومجسدةً ومؤسسةً للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا؛ بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى، ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

قلّما يمرّ على الإنسان يومٌ لا يتخذ فيه قرارًا في مال: ما يشتريه وما يدعه، وما يطلبه من رزق، وما يؤخره من حق، وما يرجوه من زيادة، وما يخافه من نقص. وأكثر هذه القرارات صغير لا يلتفت إليه أحد، ولا يلتفت إليه صاحبه نفسه. ولكنها تتراكم في القلب حتى تصنع له ميزانًا يزن به نفسه والناس، وربما زن به ما يظنه عن ربه، وهو لا يدري متى تكوّن هذا الميزان ولا من أين جاء.

والقرآن لم يترك هذا الميزان لما تصنعه الأيام. فقد تكلم عن المال في آيات العقيدة وفي القصص، وفي أحكام البيت والسوق، وفي مشاهد الآخرة. وجعل أطول آية فيه في دَين بين اثنين. وذكر المال في دعوة نبي إلى توحيد الله، وفي خبر رجل خرج على قومه في زينته، وفي ندم إنسان يطلب أن يُؤخّر قليلًا ليتصدق.

وفي سورة الذاريات صورة لقوم يجمعهم وصف واحد: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: 17-19]. قيام الليل، واستغفار السحر، وحق في المال، في نَسَق واحد لا يفصل بينها فاصل. فأيُّ قلب هذا الذي يقوم بين يدي ربه في الليل، ثم يصبح والحق في ماله حاضر لا ينتظر من يطالب به؟ وكيف تصير الصلاة والمال في حياة إنسان شأنًا واحدًا لا شأنين؟ عن هذا يسأل الكتاب.

واسمه من سورة الفجر: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: 20]. ولا يقصد بالعنوان أن يتهم قارئه بحب المال، فمن ذا الذي لا يحبه؟ إنما يقف عند كلمة ﴿جَمًّا﴾: متى يجاوز الحب حدّه؟ وماذا يصنع حين يجاوزه؟ وما الذي يقع في السورة قبل هذه الآية، حتى جاء وصف الحب في آخر ما ذُكر؟

ويمضي الكتاب بعد ذلك في أسئلة يعرفها كل من مرّ المال بيده. ماذا يقول الإنسان عن ربه حين يتسع رزقه أو يضيق؟ لمن هذا المال الذي يسميه كل يوم «مالي»، وكيف يملكه حقًّا وهو من عند غيره؟ متى يصير المحبوب حاكمًا على الرضا والسخط؟ ومن الذي يحدثه عن الفقر كلما همّت يده أن تمتد؟ من أين يأتيه ما يكسب، وهل يكفي أن يأتي بأي طريق؟ وما الذي في يده وليس له حق في إمساكه، ولو لم يطالبه به أحد؟ وفيمَ يُنفقه حين لا يلزمه شيء، وحين يلزمه؟ ثم ما الذي يتبعه من هذا كله حين يرجع المال ويبقى غيره؟

أسئلة لا يجيب عنها الكتاب بقواعد تُحفظ، وإنما يقف بقارئه عند آيات وأخبار يرى فيها نفسه. فيها رجل أعطاه الله فقال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾، وآخر قال «كنتُ أعمى فردّ الله بصري». وفيها

قوم تواصوا في الغدوّ ألّا يدخل عليهم مسكين، وصحابي بادر بأحبّ أمواله إليه حين سمع آية. وفيها أجير غاب عن أجره سنين ثم عاد فوجده واديًا من المال.

والكتاب يخاطب القارئ حيث هو. يخاطب من وسّع الله عليه، ومن ضاق عليه رزقه. ويخاطب الموظف في عمله، والتاجر في سوقه، والمرأة في مالها، والوارث في حقه، والولي على مال من لا يملك أمره. ولكل واحد منهم في الوحي سؤال يخصه، وباب إلى ربه لا يتوقف على مقدار ما في يده.

ويبدأ الكتاب من حيث تبدأ سورة الفجر هذا الحديث: من إنسانٍ وسّع الله عليه رزقه، فقال: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾.

محتويات الكتاب

ماذا يقول الإنسان عن ربه؟ 1

حين يختل ميزان الكرامة 1

لمن هذا المال؟ 8

الرزق والملك 8

متى يصير المحبوب حاكمًا؟ 17

حين تتحوّل المحبة إلى سلطان 17

حين ينسب الإنسان النعمة إلى نفسه 21

من يَعِدُك الفقر؟ 30

الخوف والشح 30

من أين اكتسبه؟ 39

صدق الكسب وعبادة السوق 39

حين يصير حقّ الآخر ميزانًا للكسب 44

بأي حقٍّ يُمسكه؟ 51

حقوقٌ لا يُسقطها صمتُ أصحابها 51

الأمانة التي لا يراها أصحاب الحقوق 58

فيم أنفقه؟ 63

حين يصير البذل محبوبًا إلى القلب 63

ما الذي يتبعه من ماله؟ 72

حين يكشف الأجل ما قدَّمناه 72

الحقُّ الذي لا يضيع، والحياةُ التي ينبغي أن تُقدَّم لها 75

ماذا يقول الإنسان عن ربه؟

حين يختل ميزان الكرامة

قد يفتح الله لإنسان بابًا من الرزق انتظره طويلًا، فيعود إلى بيته وفي صدره فسحة لم يجدها منذ أشهر. تهيأ له الآن أن يقضي حاجةً لأهله، وأن يسدد ما أثقل كاهله، وأن يأمن بعض ما كان يخافه. وقد يضيق الرزق على آخر، فيقلب نفقات بيته مرة بعد مرة، ويؤخر أمرًا كان يرجوه، وينظر إلى من يعولهم بعين لا تخلو من القلق. هذا فرح، وذاك حزن. غير أن أخطر ما يقع في اللحظتين قد لا يكون فيما دخل اليد أو خرج منها، بل فيما يقع في القلب بعد ذلك: ماذا يقول الإنسان عن ربّه؟

ولقد يختلط الحمدُ على اللسان بشعورٍ خفيّ بالاستحقاق، ويمتزج ألم الحاجة بوهمٍ عن منزلة العبد عند ربه. عند هذا الموضع يصحح القرآنُ المعنى من أصله، قبل أن يُملي المال على القلب ما يقول عن الله.

حين يقول الإنسان: ربي أكرمن

تقدَّم الحديثَ عن المال في سورة الفجر ذكرُ عاد وثمود وفرعون، بما كان لهم من القوة والقدرة، ثم بما آل إليه طغيانهم. وفي نهاية المشاهد يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: 14]. لا تفلت القوةُ بأهلها من علم الله وحكمه، مهما بدت في أعينهم عظيمة. ثم ينتقل السياق من أصحاب السلطان إلى الإنسان حين يقيس نفسه بما يناله من رزق: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: 15-16].

أول ما يلفت النظر أن الحالين جاءا باسم واحد: ﴿ابْتَلَاهُ﴾. فالذي وسَّع الله عليه ممتحَن بالنعمة، والذي قدَّر عليه رزقه ممتحَن بالضيق. وقد يظن المرء أن أيام الاختبار هي الأيام التي يفتقد فيها شيئًا، وأنه إذا تحققت أمانيه فقد خرج من الامتحان إلى الجائزة. لكن الله سمَّى السعة ابتلاءً كما سمّى الضيق ابتلاءً. وإنما العبرة بما تُنشئه الحال من شكر أو صبر أو غفلة أو اعتراض، وما تحمل صاحبَها عليه من عمل.

وتأمل دقة التعبير: قال سبحانه في الحال الأولى: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾. إن الله لم ينف عن العطاء كونه نعمة وإكرامًا في الدنيا. من رزقه الله مالًا يوسع به على أسرته، أو يستغني به عن سؤال الناس، أو يقدر به على نفعهم، فقد أصاب خيرًا يُحمد الله عليه. إنما وقع الخلل حين انتقل الإنسان من الاعتراف بعطاءٍ حصل له إلى الجزم بما لم يعلم: أن هذا العطاء شهادة بمنزلته عند الله، وأن مقدار ما ناله يكشف درجة رضاه عنه. كان الأليق به أن يقول: أنعم الله عليَّ؛ فإذا به يجعل النعمة برهانًا على استحقاقه.

وأما الآخر فقد قال: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾. لا يلومه القرآن على إدراك ضيق الرزق أو الإحساس بثقله؛ فالحاجة مؤلمة، ولا سيما حين تتصل بحقوق الأهل ومن تلزم رعايتهم. لكن الألم شيء، والحكم على الله شيء آخر. وللمرء أن يشكو ضيق حاله إلى ربّه، ويسأله الفرج، ويأخذ في أسبابه، من غير أن يفسر تأخر ما يريد بأنه إهانة من الله. قد يعرف من أمر ماله ما لا يعرفه غيره، ولكنه لا يملك من علم الله ما يجعله يحكم بمنزلته عنده من رصيده.

وفي الجملتين كلمة يردّدها الإنسان: ﴿رَبِّي﴾. لم يكن الخلل في معرفته أن له ربًّا؛ بل في المعنى الذي علّقه بفعل ربّه. ناداه ربًّا، ثم حاكم تدبيره إلى مقدار ما أحب لنفسه. وهنا يُنشئ القرآن في القلب أدبًا عظيمًا: أن يعرف العبد أن الله ربُّه في الحالين، وأنه لا يستطيع ردَّ خبر الله عن حقيقة الابتلاء بما يستحسنه هو من السعة أو يستثقله من الضيق. من عرف ذلك لم يعد الغنى يدفعه إلى الإعجاب بنفسه، ولم يعد الفقر يدفعه إلى اليأس من قرب ربّه.

وحين يستقر هذا المعنى في القلب يفتح للعبد بابًا من محبة الله والرجاء فيه. فالله الذي امتحنه بالسعة دعاه إلى الشكر، والذي امتحنه بالضيق أبقى له أبواب الطاعة والقرب؛ يصلي ويدعو ويصدق ويحفظ الأمانة ويُحسن إلى الناس بما يقدر عليه. يفرح صاحب السعة بعطاء ربه ويطلب رضاه في شكره، ويرفع صاحب الضيق حاجته إلى ربه ويرجو فضله وهو يأخذ بالأسباب.

وقد تختلف أسباب العيش بينهما، لكن أشرف ما يطلبانه واحد: أن يكونا عند الله من أهل التقوى والعمل الصالح. ما أرحم الله بعباده إذ فتح لهم طريق طاعته في أحوالهم المختلفة! وإذا أحب العبد رضا ربه، غدا شكر النعمة والصبر على الشدة أكرم في عينه من أن يجعل المال حكمًا على منزلته عند الله.

فأبطل القرآن أن تكون كثرة المال وحدها ميزان المنزلة، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: 37]. هنا ينفتح وجه آخر لمعنى المال: إن أعان صاحبه على إيمان وعمل صالح كان نعمةً يؤدي بها شكرًا، وأما عدده في ذاته فلا يحمل شهادةً بالقرب من الله.

وقال سبحانه مخاطبًا الناس جميعًا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. حين تستقر هذه الكلمة في القلب، ينتقل موضع التنافس من الظهور إلى التقوى، ومن إعجاب الناس إلى صدق العبودية. يملك المرء أسباب الدنيا ويجتهد في تنميتها، ثم يعرف أن أعظم ما يطلبه هو أن يكون أمينًا صادقًا شاكرًا عند ربه.

وفي السنة ما يردُّ الظاهر إلى الحقيقة، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (رواه مسلم، 2564). جمع الحديث القلب والعمل، فلا تكفي صورة صلاح تُعرض على الناس، ولا دعوى محبة لله لا تُصدِّقها طاعته. وفي هذا عزاءٌ لمن قلَّ ماله، وتكليفٌ شريفٌ لمن كثُر: موطن النظر الإلهي مفتوح أمامهما فيما يعقدان عليه القلب وما يباشرانه من عمل.

ويرينا النبي ﷺ كيف تنقلب أحكام الناس أمام ميزان الله. مرَّ رجلٌ على رسول الله ﷺ، فسأل من عنده: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟». قالوا: «حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ». ثم مرَّ رجلٌ من فقراء المسلمين، فسألهم عنه، فقالوا إنه حريٌّ إن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُشفَّع، وإن قال ألا يُستمع. فقال رسول الله ﷺ عن هذا الفقير: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» (رواه البخاري، 5091).

كان الرجل الأول ممن يُقبل كلامه وتُرجى شفاعته، وأما الفقير فظنّ الحاضرون أن الناس لا يلتفتون إلى قوله ولا يرغبون في نكاحه. لم تذكر الرواية أن الأول غنيٌّ، وإنما أظهرت مبلغَ ما يصنعه قبول الناس الظاهر في أحكامهم. ثم جاءت كلمة النبي ﷺ فأزالت هذه الغشاوة: من تجاوزته العيون قد يكون خيرًا عند الله ممن تُفسح له المجالس. لعل أكثر ما يحتاجه قلبك بعد هذا المشهد أن تُنصف من لا تملك له مصلحةً، وأن تُصغي لمن لا يشفع له جاهٌ عند الناس؛ فأنت لا تعلم مَن أكرم عند الله.

ولكن سورة الفجر لا تدع الإنسان يكتفي بإصلاح نظرته إلى نفسه؛ إنها تنقله من سؤال الإكرام الذي يتمناه إلى إكرامٍ لم يؤده.

كَلَّا... مَن الذي لم تُكرموه؟

بعد قول الإنسان ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ وقوله ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾، يجيء الردع: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: 17–18]. وقد عرض الإمام الطبري الخلاف في المراد بـ﴿كَلَّا﴾، ونقل عن قتادة تفسيرًا يردّ الكرامة والإهانة في هذا المقام إلى الطاعة والمعصية، ومما جاء في كلامه: «ولكن إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي».

ورجّح الطبري هذا القول مستدلًّا بعتاب الآيات التالية، وفسّر قوله تعالى ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ بقوله: «بل إنما أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم» (جامع البيان، تفسير الفجر: 17). فالتفات السورة إلى اليتيم والمسكين بيانٌ للميزان الذي أخطأ الإنسان في فهمه، ولما يظهر من أثر الإيمان في معاملته

للضعفاء. فالذي قال ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ خاف الهوان من قلّة الرزق، فجاء الرد ليبيّن أن الهوان الحق يُخشى من معصية الله، ومنها هنا ترك إكرام اليتيم والحض على طعام المسكين.

﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾... ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾. كان يتتبع ما وصل إلى يده من رزق، فكشف الوحي ما يجب أن يظهر في معاملته لضعيفٍ لا يملك دفع الأذى عن نفسه. وهنا يلامس القرآن موطنًا دقيقًا من القلب: قد يشتغل المرء بما ناله من الدنيا، وهو غافل عمّن جعل الله له حقًّا في عدله ورحمته.

اليتيم لا يملك من أسباب الدفاع عن نفسه ما يملكه كثير من الناس. قد يتولى غيره شؤونه، ويكون قرارُ حاجاته بيد من هو أقوى منه؛ ولذلك جاء الأمر بإكرامه لا بمجرد إسقاط الأذى عنه. وفي الإكرام أن يُصان ماله، وأن تُحفظ كرامته في الكلام والمجلس والمعاملة، وألا تصير حاجته بابًا للتسلّط عليه. وقد يُعطى الإنسان شيئًا مما يحتاج ثم يُسمع ما يجرحه، فيكون قد نال منفعةً ولم يجد إكرامًا. وتأمل اختيار القرآن للكلمة: ﴿لَّا تُكْرِمُونَ﴾. لا يكتفي بأن تصل إليه بعض الأشياء، يريد له أن يُعامَل على الوجه الذي يليق بآدميته وضعفه.

ثم تفتح السنة بابًا عظيمًا للرجاء، قال رسول الله ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا»، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى (رواه البخاري، 6005). وراء الكفالة أيام من رعاية شأنٍ، وحفظ مالٍ، وقضاء حاجةٍ، وجبر خاطرٍ، وربما مضت كلها بعيدًا عن أعين الناس. لكن النبي ﷺ أظهر لكافل اليتيم منزلةً يُشتاق إليها: القرب منه في الجنة. فإذا استحضرت النفس هذه الإشارة النبوية هانت عليها مشقةُ خدمة الضعيف، وصار ما تبذله ابتغاء مرضاة الله طريقًا ترجوه إلى صحبة نبيه ﷺ في دار الكرامة.

وتتسع أبواب الرحمة باليتيم على قدر الاستطاعة؛ فمن لم تتيسر له كفالة كاملة بقي له الإكرام وحسن المعاملة وحفظ الكرامة وما يقدر عليه من عون. وفي ذلك عبوديةٌ يحب المؤمن بها ما يحبه الله من الرعاية والرحمة، ويبتغي بها ثوابه بعيدًا عن طلب الثناء. فليكن همُّه أن يصل الخير إلى اليتيم مصونًا من الأذى، لا أن يظهر هو في أعين الناس بمظهر المحسن.

ثم ينتقل النص إلى المسكين: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: 18]. لم يذكر الإطعام وحده، بل عاتب على غياب الحث المتبادل عليه. فإذا ضَعُف شعور المجتمع بحاجة المحتاج، لم يكن الخلل مقصورًا على من يمنع من يده، بل شمل من يستطيع أن يحثَّ على معروفٍ ثم يسكت. قد لا يملك المرء طعامًا يكفي غيره، لكنه يستطيع أن يدل عليه، أو يوصله بمن يعينه، أو يوقظ في أهله وجيرانه رحمةً أطفأتها العادة. والآية تربي في الناس ضميرًا لا يطمئن لمجرد أن الحاجة وقعت خارج باب بيته.

نتصور قريبًا أو جارًا طال به ضيقٌ لا يظهر كله للناس. يعرف بعضَ حاجته عددٌ من أهله، لكن كل واحد ينتظر الآخر؛ فيبقى المسكين موضوع حديثٍ لا موضع مساعدة. يمكن لإنسانٍ لا يملك عونه بنفسه أن يدلَّ عليه أو يحضَّ غيره على نفعه. وأولى خُطوات النصرة أن يخرج العلمُ بالحاجة من حديث المجالس إلى عونٍ يصل إلى صاحبه.

وفي سورة الماعون يعود اليتيم والمسكين في مشهدٍ أشد: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: 1-3]. لم يجعل القرآن معرفة الجزاء بعيدةً عن معاملة الضعيف؛ فالدين الذي يُصدَّق به يظهر أثره في رحمة اليد وعدل اللسان. وهذا وعيدٌ تُراجع به النفس أفعالها، لا طريقٌ لتوزيع أحكام التكذيب على الناس من تقصيرٍ نراه. قد تكون الكلمة الكريمة التي تؤدّيها لمسكينٍ اليوم أدلَّ على حياة قلبك من حديثٍ طويلٍ عن الرحمة لا يعمل به صاحبه.

وفي السنة أيضًا ما يهدم العُجب بالقوة والمنزلة. فقد رأى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن له فضلًا على من دونه، فقال له النبي ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟» (رواه البخاري، 2896). قد يظن صاحب القدرة أنه وحده مصدر النفع، فينسى من حوله ممن لا تظهر أسباب نفعهم في تقديره. فيردّه النبي ﷺ إلى مقام التواضع لله، وإلى الاعتراف بشأن الضعفاء. وحين يرجع القلب من زهوه، يصبح أيسر عليه أن يُكرم من كان يراه عبئًا، وأن يحمد الله على أن جعله قادرًا على الإحسان إليه.

على أن سورة الفجر لا تقف عند الضعيف الذي لم يُكرَم أو المسكين الذي لم يُحَضَّ على طعامه؛ إنها تكشف وجهًا أشدَّ من التقصير: أن تمتد اليد إلى مالٍ ليس لها.

وحين يتكلم المالُ في موضع الحق

قال الله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: 19-20].

والتراث هو الميراث. وفسَّر الطبري ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ بالأكل الشديد الذي لا يُترك معه شيء، ونقل عن بعض السلف ما يبيّن صورة من صور الاعتداء: أن يجمع الآخذ نصيبه ونصيب غيره، فلا يتحرّى ما يحل له مما لا يحل. وليست الآية ذمًّا لانتقال الميراث إلى مستحقه؛ وإنما ذمٌّ لأكلٍ لا يقف عند الحق.

قد يجتمع أفراد الأسرة بعد وفاة قريبٍ لهم، فيكون من بينهم مَن يعرف تفاصيل التركة، ومَن يجهلها؛ ومَن يستطيع المطالبة، ومَن يَحول بينه وبينها صِغَرٌ أو حياءٌ أو ضعف. ويُوكل تدبير التركة إلى شخصٍ نثق به الأسرة. هنا لا يظهر امتحان المال في صورة طارئة من صور التبرع، بل في أمر أقرب إلى الواجب اليومي: ورقةُ حقٍّ ينبغي أن تُبيَّن، ومالٌ ينبغي أن يُحفظ، ونصيبٌ ينبغي أن يبلغ صاحبه. وربما استطاع

المتصرف أن يُخفي شيئًا، أو يؤخر شيئًا، أو يجد لنفسه مسوِّغًا يرضيه؛ والذين يتعلق حقهم بالمال قد لا يستطيعون دفع ذلك.

في مثل هذا الموضع يتكلم الإيمان بغير خطبة. والموقف الأمين أن يقول من بيده المال: هذا نصيب فلان وإن كان صغيرًا، وهذا حق فلانة وإن سكتت، وما وكلني الناس أن أحفظه لا يصير ملكًا لي لأن مفاتيحه معي. قد لا يسمع منه أحدٌ كلامًا مؤثرًا، وقد لا يراه الناس عند ردِّ الحقوق؛ لكنه إذا فعل ذلك طاعةً لله، فقد قدَّم محبةَ حكم الله على رغبة النفس في الاستئثار. ليس حفظُ المال لأهله شأنًا قانونيًّا باردًا؛ يمكن أن يكون عبوديةً خالصة في اللحظة التي كان الظلم فيها ممكنًا ولا رقيب من الناس.

وتدبّر كيف رتبت سورة الفجر الألفاظ. قال الإنسان عن ربّه: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾. ثم قيل له: ﴿لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾. ثم كشفت الآيات أكلَ التراث؛ حتى إذا رأينا اليد وهي تأخذ، سمعنا وصفَ القلب الذي يحب: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾. ليس هذا إثباتًا أن كل ظالمٍ للميراث يبدأ بوهمٍ واحد، ولا أن كل محبٍّ للمال يأكل حق غيره؛ لكنه تدرجٌ قرآنيٌّ يجعل القارئ يرى القلب والحق في مشهد واحد: ما الذي حدث لنظر الإنسان إلى نعمته، حتى غاب عنه حق الضعيف واستسهل ما ليس له؟

فسَّر الطبري ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ بحبٍّ كثير شديد. وجاء هذا الوصف عقب العتاب على ترك إكرام اليتيم والحضّ على طعام المسكين وأكل الميراث بغير حق؛ فيكشف تتابع الآيات ما تصنعه المحبة إذا تقدّمت على حق الغير. ومتى احتاجت المحبة إلى ظلم أحدٍ لتشبع، ظهر فساد موضعها في القلب.

والمال في أصله مما ينتفع به الناس. يحب المرء أن يُغني به أهله عن السؤال، وأن يُصلح به بيتًا، وأن يهيئ به أسباب عيشٍ كريم. هذه المعاني لا تُنفِّر القلوب منها في دينٍ جعل للناس حقوقًا في أموالهم. لكن يظهر معدن الحب في لحظةٍ محددة: حين يكون في إمكانك أن تضيف إلى ما تملك شيئًا لا يحل لك، أو أن تحتفظ بحق غيرك بحجة أنه لا يطالب، أو أن تتجاوز حقًّا ثابتًا لغيرك لأن تجاوزه يزيد مالك. عندها يتبين من الذي تُقدِّم رضاه: ربّك الذي أمرك بالعدل، أم نفسك التي ترى الزيادة قريبة؟

وللعبودية هنا فرحةٌ لا يراها من يحسب كل ما خرج من يده خسارة. قد يضع الإنسان أمام وارثٍ ضعيفٍ حقَّه كاملًا، وقد كان يستطيع تأخيره أو الانتقاص منه؛ فيذهب المال إلى مالكه، ويبقى في القلب معنى لا يقدَّر بمال: أن الله وفَّقه إلى العدل حين دعته نفسه إلى غيره.

وليس ردُّ الحق صدقةً يتفضل بها على صاحبه؛ إنه واجبٌ أداه، ولكن الواجب نفسه قد يكون من أحب الأعمال إلى قلب المؤمن لأنه يطيع به ربَّه. وبقدر ما تكون الزيادة المحرمة خسارةً في حقيقة الأمر، يكون تركها فتحًا في حياة العبد وإن لم تزد ثروته.

وقد تكون ثمرة هذا البيان هادئةً لا يراها غيرك: أن يلين قلبك لمن كنت تنظر إليه بفوقية، أو أن تحمد ربّك على رزقٍ ألفته حتى نسيت المنعم، أو أن تُرجع حقًّا ظل في يدك طويلًا وأنت تستطيع رده. وربما كان أعظم ما تجدُه أن تحبَّ رضا الله حبًّا يُهوّن عليك مخالفة رغبةٍ تُفضي إلى ظلم، ويعينك على شكر نعمةٍ لا تريد أن تستعبدك.

وحين يصحّ ميزانُ الكرامة، يبقى أمام مالك الذي تكتسبه وتحفظه سؤالٌ أعمق: كيف يكون لك ملكٌ صحيحٌ وأنت تسمع قول الله تعالى: ﴿مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33]؟

لمن هذا المال؟

الرزق والملك

قال الله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ». ثم بيَّن سبحانه غناه عن خلقه، وأنه لو أعطى أولهم وآخرهم كلَّ واحدٍ مسألته، «مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ» (رواه مسلم، 2577).

كان الإنسان يرى الطعام والكسوة من جهة الأجرة والسوق والصانع، وكلها أسباب حقيقية. ثم يسمع من ربه: «إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ»، و«فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ». فيرتفع قلبه إلى الذي أوجد الطعام وهيأ أسباب الوصول إليه، ودعاه — وهو الغني عنه — إلى أن يسأله. وللجائع الذي يدعو ربَّه باب قرب لا تغلقه قلة ما في يده.

﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾

وفي سورة النساء يرد الحديث عن المال وسط أحكام حفظه ورعاية أهله؛ قال الله تعالى: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: 5].

وفي قلب آية النساء كلمةٌ تُعيد للمال قدره: ﴿قِيَامًا﴾. من المال يكون طعامُ البيت وكسوته وسكنه، وتقوم المهنة التي ينتفع بها الناس. وفسَّر الطبري القيام بما يكون قوامًا لمعايشهم. فإذا حفظتَ مالًا تحتاجه أسرتك، فقد تكون قد صنتَ به شيئًا من هذه المعايش. وهذه الكلمة تمنع أن يرى العبد المال شيئًا تافهًا ينبغي إضاعته، أو أن ينسى نعمة الله عليه حين يحسن تدبيره.

ومن جعل المال قيامًا للناس هو الذي هيَّأ لهم أسباب تحصيله؛ ومعرفة هذه النعمة تفتح بابًا لمعرفة مَن بيده الرزق كله.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾

قد يتتبع الإنسان أسباب دخله حتى يعرفها واحدًا واحدًا: وظيفةٌ تعلم لها، وتجارةٌ عرف سوقها، وأرضٌ زرعها، ومهارةٌ أتقنها. وهذه كلها أسباب واقعة تستحق أن يُحسن الأخذ بها. لكن وراء السبب سؤالًا يتجاوز أرقام الدخل: مَن خلق الإنسان الذي يعمل، والعقل الذي يتعلم، والأرض التي تُنبت، والفرصة التي تنفتح، والناس الذين نتبادل أيديهم المنافع؟

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58]. يجتمع في الآية الاسم والصفة: هو الرزاق، ورزقه صادرٌ عن قدرةٍ لا يعجزها ما يعجز الخلق. قد تنفد موارد رجلٍ أو تعجز مؤسسةٌ عن الوفاء، وقد تُغلق أبواب بشرية كان الناس يظنونها مأمونة؛ وأما الله فهو الذي تقوم به أسبابهم كلها، وهو الذي يملك ما ليس في وسعهم أن يملكوه. وإذا آمن القلب بهذا لم يعد يعبد السبب الذي يعمل به، ولم يحتقره أيضًا. أخذُ السبب طاعةٌ في موضعها، وتعليقُ القلب برب الأسباب هو الذي يصونها من أن تستولي عليه.

وحين يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19]، يجتمع في قلب المؤمن الرجاء والتسليم. لطف الله أوسع من معرفته المحدودة بمسالك الرزق، وقوته أعظم من كل عائق يراه. قد يعرف المرء الطريق الذي جاءه منه الرزق، ويجهل وجوه التدبير الإلهي التي هيأت أسبابه؛ فيحمد الله على ما علم وما غاب عنه. فليطمئن إلى حكمة الله فيما علم وفيما لم يعلم، وليدع الحكم على أسباب أقدار الناس الخفية لربهم العليم.

وفي السورة نفسها قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: 12]. فالمقاليد له، والبسط والتقدير له، والعلم المحيط له. لم يُترك أمر الرزق لفوضى عمياء، ولم تُجعل القدرة البشرية ملكًا مستقلًا عن حكم الله. وإذا اختلف نصيب الناس من المال كان في علم المؤمن بذلك ما يمنعه من الاعتراض على ربه، ومن ازدراء من ضاق رزقه، ومن الاغترار بما وسّع عليه.

وتبين السورة وجهًا آخر لحكمة البسط والتقدير: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27]. لا يعلم الإنسان الحكمة الخاصة وراء نصيب كل أحد، ولكنه يعرف أن ربه خبيرٌ بصير؛ فله أن يسعى ويطلب، وله أن يطمئن إلى علم الله حين تعجز مقاييسه عن الإحاطة بالعاقبة.

فالله الذي يرزق الأجساد غذاءها هو الذي يفتح للقلوب هداها. ومن أعظم ما يرزقه عبدًا أن يعرفه ويحبه ويطمئن إلى حكمه، وأن يأنس بدعائه وهو يمضي في أسباب معاشه. وحين تمتلئ النفس بهذا المعنى لا ينصرف اهتمامها عن العمل، وإنما تعرف أين تقف في علاقتها به: تعمل بما تستطيع، وتفتقر إلى الله في كل ما تستطيع وما لا تستطيع.

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾

من عرف أن الله هو الرزاق ربما عرض له سؤال: إذا كان رزقي بيده، فلماذا أُتعب نفسي في طلبه؟ ويأتي جواب القرآن في آية واحدة تجمع بين التوحيد والحركة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

تبدأ الآية بالله: ﴿هُوَ الَّذِي﴾. ثم تريك أرضًا مذللةً صالحةً للانتفاع بما فيها من طرقٍ وزروعٍ ومساكنَ وأسبابِ معيشة. وبعد هذه النعمة يأتي الأمر: ﴿فَامْشُوا﴾. لم يقل القرآن: ما دام الرزق لله فانتظروا؛ بل دلّ على أن من تمام معرفة الرازق أن تسعى في الأرض التي ذلّلها. فإذا مشيت وعملت وأنت تستحضر أنه هو الذي يسر الأرض وما فيها، جاء تمام الآية: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾. كسبتَ بجهدك، ومع ذلك فالذي تأكله من رزقه. وبهذا لا يسلب الإيمان العمل فضله، ولا يجعل العمل مصدرًا مستقلًا عن الله.

وفي وسط الآية لفظٌ يستحق المكوث: ﴿مِنْ رِزْقِهِ﴾. قد يقضي الإنسان ساعات يزرع أو يبني أو يعلّم أو يعالج أو يبيع أو يصنع، ثم يعود إلى بيته بثمن تعبه. إن اليد التي تعبت يدُه حقًا، والمهارة التي اكتسبها سببٌ حقيقي، ولكن ما انتهى إليه من رزقٍ داخلٌ في فضل الله وملكه. ويعرف هذا حق المعرفة من جدّ فلم يظفر بما طلب، ومن وجد أمامه بابًا لم يكن يتوقع أن ينفتح، ومن رأى اختلاف ثمرات أعمالٍ تتقارب في ظاهر الجهد. يُحسن السبب لأنه مأمور به، ويرجو التوفيق لأنه لا يستغني عن ربه.

وخُتمت الآية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾. وأنت تمشي في الأرض لتأكل من رزقه لا تنسى أنك راجع إليه. هذه النهاية تمنح يوم العمل كله وجهة. سيبقى المرء محتاجًا إلى تقدير الربح والتكلفة وإتقان الحرفة، ومع ذلك يبقى سؤالٌ أعظم: هل سلك الطريق المباح؟ وهل أدى أمانته؟ وهل شغله طلب الرزق عن واجب ربه؟ تلك الأسئلة لا تُلغي فرحة الكسب؛ بل تجعل الفرح أشد سلامة وأقرب إلى الشكر.

ويؤكد القرآن هذه الصورة في سياق آخر: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10]. قد وقف المؤمن مع الجماعة يصلي، ثم يعود إلى سعيه، فيُذكر باسم الله وهو يبتغي فضله. يتحرك الجسد بين المسجد والعمل، ويبقى القلب محتاجًا إلى الذكر في المكانين. وحين يبتغي المؤمن الكفاية من فضل الله يلتقي سعيه بعبادته؛ فقد يكون من صدق العبودية أن يأخذ المرء بأسباب نفقة من تلزمه نفقتهم، وأن يغني نفسه ما أمكن عن الحاجة إلى الناس.

وتأتي السنة لتجعل لهذا المعنى صورة لا تُنسى، قال رسول الله ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» (رواه البخاري، 2072).

وتزداد دلالة الحديث حين نعود إلى داود عليه السلام. قال الله: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 251]، وقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ [الأنبياء: 80]، وقال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: 10]. كان نبيًّا ملكًا يأكل من عمل يده. لا يزاحم شرفُ الملك شرفَ الكسب، ولا تجعل المهارة صاحبَها مستغنيًا عن الذي علَّمه وأعانه.

ولا يحتاج المؤمن إلى صنعة داود نفسها ليعيش ثمرة هذا الهدي، فقد يعمل بيده أو بعقله، ويتعلم مهارةً أو يحسن خدمةً، ويبتغي رزقًا طيبًا. العمل سببٌ يباشره، والقدرة على التعلم والعمل من فضل الله عليه. فإذا اكتسب خبرةً أو أتقن عملًا، كان من صدق الشكر أن ينسب الفضل إلى الله مع اعترافه بالسبب الذي بذله، وأن يستخدم ما تعلمه فيما يحبه سبحانه.

وفي التوكل صورة نبوية أخرى: قال ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» (رواه الترمذي، 2344، وقال: حديث حسن صحيح). تخرج الطير أول النهار خالية البطون، ثم تعود آخره وقد امتلأت. إنها لا تُؤمَر في هذا المثل أن تبقى في أعشاشها تنتظر الطعام؛ وفي الوقت نفسه لم تجعل حركتها خالقةً للرزق. تذهب وتعود وهي من خلق الله الذي يتكفل بأرزاقه.

وفي غدو الطير ورواحها صورة للسعي المتوكل: يتحرك العبد فيما أباح الله، ويفوّض إلى ربه ما يخفى من النتائج. قد يبذل الإنسان وسعه ثم تتأخر عنه وظيفة أو ربح؛ فيبقى رجاؤه بالله قائمًا، ولا يصير تأخر مطلوبه حكمًا على حقيقة توكله. فالتوكل يحمله على العمل مع حسن الظن بالله، دون أن يجعل الإيمان وعدًا له بنتيجة مالية مخصوصة.

وللعمل في النفس كرامةٌ أخرى: حين يرفع الإنسان رأسه لا فخرًا على الناس، بل فرحًا بأنه لم يحتقر ما أباح الله من سعي، ولم يجعل دنياه انتظارًا لما في أيدي غيره. يطعم من يعول، ويقضي ما عليه، ويجد في أول ثمرات جهده سببًا لحمد الله. فإذا قال: الحمد لله الذي رزقني، لم يكن قد أنكر تعبًا بذله؛ بل عرف فضل الذي أعطاه القوة على البذل، وفتح له منفعةً انتفع بها.

وبهذا يغدو يوم العمل بابًا من معرفة الله: ترى قدرته في الأرض التي تسلكها، ورحمته في منافعها، وفضله في الرزق الذي تأكله، وهدايته في الحدود التي تحفظك من الحرام. وما أحسن أن يعود العبد من كسبٍ طيبٍ وقد ازداد شكرًا، لا إعجابًا بنفسه، وازداد عزةً بالحلال، لا تعاليًا على المحتاج.

﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾

ومن عرف ربه في الرزق، وبذل وسعه في طلبه، احتاج إلى فهم الملك نفسه. فإذا وصل المال إلى يدك بطريق مشروع، فهو مالك الذي تنتفع به وتتصرف فيه في حدود الشرع. لكن القرآن يفتح وراء صحة هذا الملك حقيقةً أعظم: أن المالك الأول هو الله، وأنك إنما أوتيت ما في يدك استخلافًا واختبارًا.

قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: 7]. يبدأ الأمر بالإيمان، ويجيء الإنفاق من مالٍ جعل الله الإنسان مستخلفًا فيه، ثم يختم بوعد الأجر الكبير. ويجمع القرآن الإيمان الذي يحمله القلب بحركة المال الذي تحمله اليد. يتعلم العبد أن اعترافه بربه ليس كلمة يقولها في المسجد ثم يصير ماله خارجًا عن سلطان الله إذا خرج؛ إنما أثر الإيمان أن يكون المال الذي يملكه سببًا لطاعته.

وشرح الطبري قوله: ﴿مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ بأن الله خوّل الناس المال الذي كان عند من قبلهم، وجعلهم خلفاءَهم فيه، وأمرهم أن ينفقوا في سبيله. فالمال من فضل الله الذي يسَّر أسبابه لعباده؛ وصل إلى هذا المالك بحقٍّ، ومُنح فرصة العمل فيه، وكُلِّف أن يؤدي ما أوجب الله في ملكه. هذه هي الأمانة التي يحملها الملك من داخله.

وفي صدر الآية وخاتمتها معنى يستحق الوقوف. الله يأمرك أن تنفق مما جعلك مستخلفًا فيه، ثم يعدك على طاعتك أجرًا كبيرًا. الملك كله له، والعطاء من فضله، ثم يثيب عبدًا استجاب له فيما جعله عنده. من عرف هذا لم يرَ الطاعة المالية غرمًا محضًا؛ إنها فرصة كريمة يفتحها له ربه في مال كان فضلًا منه ابتداءً. ويستعيد المال قدره حين يصير بابًا لطاعة الله ومحبته، بعد أن كاد يكون سببًا للشعور بالاكتفاء عنه!

ويقول سبحانه بعد ذلك في السورة: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: 10]. فإذا كان ميراث السماوات والأرض لله، فما الذي يُغني الإنسان عن الطاعة بما جمع في زمنٍ محدود؟ والآية هنا في الحضّ على الإنفاق في سبيل الله، ولكنها تبني لذلك أصلًا في معرفة

المالك. إن تذكر ملك الله العظيم لا يحقر العمل في الأرض، وإنما يُعيده إلى قدره ويمنع أن تشتد قبضة النفس على ما جُعل عندها حتى تنسى صاحبه.

وحين يعلم المؤمن أن المال مال الله، فكيف يفهم عبارة «مالي» التي يستعملها كل يوم؟ يستعملها بحق. له ملكٌ شرعي ثابت، يشتري ويبيع ويهب ويحفظ ويورث وفق الأحكام التي شرعها الله. وحرمة مال الإنسان حقٌّ صانه الشرع، فلا تستباح لأحدٍ لمجرد قوته وسلطانه.

ولذلك كان من أظهر فساد فهم الاستخلاف أن يتخذ إنسانٌ اسم الله ذريعةً للاستيلاء على مال غيره، أو إسقاط ملك امرأةٍ أو يتيمٍ أو ضعيف، أو إلزام الناس بتصرفٍ لم يوجبه الله. ملك الله للمال يزيد ملك العبد مسؤوليةً وانضباطًا، ولا يُحوِّل أموال الناس إلى ملك مباح لمن شاء.

ولعل أجمل ما يتغير به شعور المالك أن يكون مطمئنًا إلى نعمة الملك، غير مستغنٍ بها عن ربه. قد يمسك وثيقة بيتٍ اكتمل ثمنه، أو يرى ثمرةَ أعوامٍ من عملٍ أمين، فيحمد الله الذي يسّر له ذلك، ويعرف أن هذا الملك مشروعٌ يفرح به ويحفظه. لكن يزداد فرحه صفاءً حين يعلم أنه يملك ليعبد الله فيما يملك؛ فالبيت موضع سكنٍ ورحمةٍ وستر، والمال أداة قيامٍ وعون، والملكية بابٌ لأمانةٍ لا لقبٌ يجعله خيرًا من غيره.

وتأتي آية النور بلفظٍ لا يمكن أن يُقرأ في باب الملك دون أن يوقظ القلب: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33].

وسياق الآية يبين وجه الأمر بالإيتاء. إنها في سياق المكاتبة؛ قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: 33]، ثم جاء أمر الإيتاء. وذكر المفسرون خلافًا في المأمور بإعطاء المكاتب وفي المال الذي يُعطى منه؛ ورجح الطبري حمل الأمر على إعطاء المكاتبين من سهمهم في الصدقة المفروضة. فالأحكام الخاصة في هذه الآية لا يُنقل بعضها إلى كل مالٍ خاص بإطلاق.

وفي هذا اللفظ تربيةٌ للقلب داخل حكمٍ مالي مخصوص: ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾. لم يكتف بأن يأمر بعطاءٍ في هذا الباب، ذكّر الآخذ والمعطي بمن أتى المال أولًا. المال مال الله، وقد آتاك منه. وجَّهك هذا التعبير إلى أن ترى ما تملكه نعمةً مضافةً إلى الله، وأن تحمل هذه النعمة على ما شرعه فيها، مع بقاء حقك في ملكك وصيانته. وما أرقَّ هذه التربية: يعلم الله أن اليد تميل إلى ما قبضته، فيصلها بمعرفة المنعم قبل أن يطلب منها أن تعطي.

وهكذا يجتمع في القلب حقيقتان تتكاملان: تملك حقًّا، وتحمل أمانة. الأولى تحفظ لك كرامتك وحرية تصرفك المشروع، والثانية تمنعك أن تجعل تلك الحرية انفلاتًا من حكم الله أو نسيانًا لمن أنعم عليك. فإذا رزقك الله شيئًا، قلت بصدق: هذا مالي الذي أملكه بحق، وهو من مال الله الذي آتاني. ولا تناقض بين العبارتين؛ إنما تكمل إحداهما الأخرى.

من وصل إلى هذه المعرفة تبدلت طريقته في النظر إلى الملكية: يحترم ماله لأن الله جعله قيامًا، ويحترم مال غيره لأن ملك الله لا يسوّغ له الاعتداء عليه، ويتهيأ لأداء الحق حين يتعلق به حق. وحين يضيف إلى هذا كله يقينًا بوعد الله وعظيم فضله، يغدو معنى الاستخلاف باعثًا على فرح العبودية، لا ثقلاً يُفسد عليه سكينة النعمة.

ما الذي يستحق أن يُحفَظ؟

وأحيانًا يظهر شكر النعمة في أن تبقى صالحةً ليوم الحاجة. فالذي يتعب في جمع رزقه ثم يحسن حفظه قد يؤدي بذلك حقًّا لا يقل شأنًا عن بعض صور البذل: أن يصون قوت من يعول، ويمنع ما في يده من الضياع، ويترك لغدهم ما يحتاجون إليه.

وفي قصة يوسف عليه السلام مشهد عجيب؛ جاءته رؤيا الملك، ففسَّر ما سيأتي من أعوام الخصب ثم الشدة، ولم يقف عند الإخبار بما يقع، بل رسم طريقًا لحفظ قوت الناس. قال كما أخبر القرآن: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: 47]، ثم قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: 48]، وأتبع ذلك ببشارة عامٍ تأتي فيه الإغاثة [يوسف: 49].

ما أخبر به يوسف عليه السلام عن السنين المقبلة كان مما علَّمه الله في تلك الواقعة؛ ولذلك لم يكن حفظ الحصاد حيلةً منفصلةً عن التوكل، بل استعمالًا للأسباب التي هُدي إليها ليبقى قوت الناس في سنوات الشدة.

في توجيه يوسف عليه السلام توازنٌ دقيق: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ عملٌ لا ينقطع خوفًا من المستقبل، و﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ حفظٌ لما سيحتاج إليه الناس، و﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ انتفاعٌ بالحاضر دون استنفاد خيره. لقد علّمه الله خبر تلك السنين، وجعل في توجيهه صورةً باقيةً لما يجتمع فيه التوكل مع السعي، وحسن التدبير مع الرحمة بمن لم يأتِ يوم حاجته بعد.

وحين يُحفظ الطعام لمن سيحتاجه غدًا يظهر معنى ﴿جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ في صورةٍ تُرى وتُلمس: قوتٌ يبقى، وبيتٌ يُصان، ورحمةٌ بأناسٍ لم يأت يوم حاجتهم بعد. في هذا الشكر العملي عبوديةٌ لا يسمع الناس لها صوتًا، ويعلم الله بها.

في بيتٍ فيه حاجات كثيرة ودخل محدود، يراجع المسؤول عن نفقته المصروفات برفق، ويقدّم الطعام والدواء والكسوة الضرورية، ويدع ما يمكن تأخيره. قد لا يلتفت أحدٌ إلى هذا العمل، ولكنه يحمل معنى عظيمًا: يحفظ قيام البيت، ويصون كرامة من يعيشون فيه، ويؤدي أمانةً فيما أتاح الله له. وقد تكون صاحبة هذا القرار امرأةً تتصرف في مالها، أو رجلًا يعول أسرته، أو شريكَين يتدبران أمر بيتهما. وليس لبعضهم أن يستولي على ملك غيره باسم التدبير؛ فإن إحسان التصرف يبدأ باحترام الحق.

يُرى أثر النعمة حين تؤدّي وظيفتها: خبزٌ يصل إلى أهله، ودواءٌ يجد ثمنه، وأداة عمل تبقى صالحة، وتعلّمٌ يفتح لصاحبه باب رزق. وهي منافع قد تبدو عادية؛ لكنها عظيمة لمن افتقدها. وإذا كان الله قد سمّى المال قيامًا، فأيُّ شكرٍ أصدق من أن تحسن القيام بما جعله الله قيامًا لحياتك؟

ولا يقتصر حسن استعمال النعمة على الحفظ عند الضرورة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]. جاءت الآية ردًّا على من حرّم من الطيبات ما أحله الله. فالبيت الطيب، واللباس الحسن، والطعام الذي يسر الأهل، متعٌ مباحةٌ يفرح المؤمن بها ويحمد المنعم عليها. والاتزان لا يحرم هذه النعم جمالها، بل يجعل التمتع بها متصلًا بالشكر والقيام بما يلزم من حقوق.

إذا رجع صاحب المال إلى بيته وأبصر ما يصلح به حال أهله، لم تكن النعمة حاجزًا بينه وبين الله؛ قد تكون طريقًا إلى محبته. يحمده على رزقٍ طيب، ويسأله أن يبارك له فيه، ثم ينتفع به وهو يعلم أن الشكر أوسع من كلمات تقال: إنما يصدق في حسن استعمال ما أعطاه الله.

«فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ»

وتأتي السنة في ختام هذه المعاني بحكمٍ يبعث الطمأنينة إلى المال إذا أُخذ ووُضع بحق. روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ حذّر من فتنة زهرة الدنيا، وسأله رجل: أويأتي الخير بالشر؟ فذكر ﷺ أثر حسن الأخذ والتصرف، وقال: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ» (رواه مسلم، 1052، من حديث أبي سعيد).

هذا ثناء على المال الذي يُؤخذ من حقٍّ ويوضع في حقٍّ، وفيه فسحةٌ للفرحة المشروعة بالرزق الطيب؛ فهو معينٌ على الطاعة حين تُحسن النفس توجيهه.

وفي روايةٍ أخرى من حديث أبي سعيد نفسه عند مسلم يجيء لفظ يرد القلب إلى أول ما سمعه من سورة الفجر: «وَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ هُوَ لِمَنْ أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ» (رواه مسلم، 1052، من طريق أخرى عن أبي سعيد).

لقد كان اليتيم والمسكين في سورة الفجر موضع عتابٍ على ترك الإكرام والحضّ على الطعام. وها هما يعودان هنا في صورةٍ أخرى: مالٌ أُخذ بحق، ثم صار صاحبه به معينًا على الإحسان. إنما يكتمل معنى الملك حين يعرف القلب المنعم، وتطيع اليد حكمه، ويصل الخير إلى من يستحق. وينقلب موضعُ العتاب إلى موضع رجاءٍ وعملٍ محبوبٍ إلى الله!

وقد يمسك المؤمن بما كسبه فيقول من قلبه: الحمد لله الذي رزقني وأعانني وهداني إلى حقه. ثم ينظر إلى ما في يده بمحبةٍ صافية للمنعم: يريد أن يكون هذا المال قيامًا لحياته وعونًا على الخير، ويرجو أن يجعل الله فيما يملك سبيلًا إلى رضاه.

لكن المال الذي عرف الإنسان قيمته وعونَه لا يزال محبوبًا لقلبه؛ وقد تمتد محبته حتى تطلب لنفسها من سلطانٍ على الرضا والتقدير ما لم يجعل الله للمال. فما الذي يحدث للنفس حين ينتقل الرصيد من وسيلةٍ نافعة إلى مقياسٍ تزن به قدرها وقدر الناس؟

متى يصير المحبوب حاكمًا؟

حين تتحوّل المحبة إلى سلطان

قال الله تعالى في سورة العاديات: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: 1-5]. حركةٌ وصوتٌ واندفاع، حتى يوشك السامع أن ينسى نفسه وهو يتابع المشهد. ثم يفجؤه الجواب: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 6-8].

وحُصِّل ما في الصدور

لم تأتِ الآية فتقول إن الإنسان يجمع المال فقط، بل بدأت بصلته بربه: ﴿لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾. وفسَّر الطبري الكنود بأنه الكفور لنعم ربه، وروى عن الحسن معنىً يقرّب الصورة إلى النفس: أنه يعدّ المصائب وينسى النعم. وهذا ميدانٌ لا يحتاج الإنسان ليفهمه إلى أن يكون بالغ الثراء؛ فقد يعدد ما تأخر عليه من رزق، ويغفل عما وصله منه، وقد يجعل نجاحًا جديدًا كأنه ثمرة نفسه وحدها، فيختفي المنعم من حديث القلب وإن بقي اسمه حاضرًا على اللسان.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. والخير هنا المال في تفسير جمهور أهل العلم، ومنهم الطبري. وقد نقل أهل العربية في معنى الشدة وجهين: شدة المحبة والقوة فيها، أو شدة الإمساك والبخل الناشئة عن تلك المحبة. وهذان الوجهان يفتحان بابًا للنظر في النفس: قد تكون المحبة مجرد ميلٍ يعرفه الإنسان ويدبره بحق، وقد تعظم حتى يضيق صدره بكل ما ينتزع شيئًا مما جمع، ويكاد يشعر أن نقصان العدد نقصان منه هو.

فإذا كان العبد قد ذاق نعمةً واسعة، ثم لا يرى منها إلا ما يريد زيادته، كأن النعمة تجري في يده ولا تبلغ قلبه بالشكر. قد يحمد الله بكلمات محفوظة، ثم يتبين في قراراته أن أعظم ما يشغله كيف يحتفظ بما كسبه وكيف يلحق بمن سبقه، لا كيف يرضى الله عنه. وحين تشغل المقارنة بمال الغير موضع الحمد على فضل الله، تصبح المحبة بابًا لتبديل الأشياء في النفس قبل أن تبدل شيئًا في الواقع.

وتأتي سورة العاديات بعد هذا الكشف بخاتمةٍ لا تُترك لآخر العمر وحده: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات: 9-11]. إنها ساعةُ إخراج ما في الصدور، بعد أن شُغل الناس في الدنيا بعدّ ما في الأيدي.

قد يتشابه العملان في عيون الناس، ويفترقان عند الله بما حمله القلب. قد يجمع اثنان مالًا بالطريق المشروع نفسه، ويكون أحدهما أقرب إلى الله به، والآخر أبعد؛ لأن الأول يرى فضل المنعم ويطلب رضاه، والثاني يجعل الزيادة موضع فخرٍ واستغناء. والله أعلم بعباده وأعمالهم؛ لا يدعي أحدٌ قراءة ما في قلب غيره، ولكن كل واحدٍ مأمور أن يحاسب نفسه على ما يجد فيها.

لقد كشف الله موطن الخلل قبل أن يفضحه يوم تُحصَّل الصدور، وفتح له اليوم باب التوبة والشكر. فإن لاحظت أن فرحة زيادة المال طغت على فرحتك بالقرب من الله، أو أنك تؤثر في قلبك ما في اليد على ما عند الله، فما زال بإمكانك أن تعود إلى المنعم الذي يعرف ضعفك، وتطلب منه قلبًا يعبدُه ولا يخضع لشيءٍ من خلقه.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾... فأين الخير الأكبر؟

قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14].

جاء المال في جملة ما تشتهيه النفوس: الذهب والفضة، وما كان عند الناس من الخيل والأنعام والحرث. ولم يصف القرآن هذه الأشياء بأن وجودها في الحياة عيب؛ فقد جعلها متاعًا، وفيها منافع حقيقية. ولكنه سمّى حجمها الصحيح من أول الأمر: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. يُنتفع به، ويُفرح به في موضعه، ثم يقابل هذا المتاعَ ما عند الله من حسن المآب.

ولا تقف الآيات عند تسمية متاع الحياة الدنيا؛ فبعدها مباشرة يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 15]. أيُّ خيرٍ يملأ القلب أكثر من ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾؟

وقد جعل الطبري رضوان الله في تفسير هذه الآية أعلى منازل كرامة أهل الجنة. هكذا لا يُطلب من المؤمن أن يطفئ محبته للطيبات؛ بل أن يراها دون ما عند الله، وأن يشتاق إلى رضاه فوق كل متاعٍ مهما حَسُن. فإذا استقرت هذه المحبة في القلب، كان في الطاعة فرحٌ لا تمنحه وفرةُ الأرقام.

وقد يظن إنسان أنه لا يقدم المال على الله لأنه يصلي ويذكر الله، ثم تأتيه لحظةٌ يطلب منه فيها حبُّ المال أن يغيّر ترتيب الأولويات: يُقبل على زيادةٍ وهو يعلم أنها تشغله عن حق واجب، أو يُزري بإنسان لأن دخله أقل، أو يتغير صدره على أخٍ كان يحبه يوم يسمع أنه سبق إلى نعمة مالية. وفي هذه المواقف أولى بالإنسان أن يفتش عن أثر المحبة في سلوكه ورضاه وتقديره للناس. فما الزيادة إن كانت تذهب بفرح الشكر؟ وما المزية إن كانت تجعله يحتقر عباد الله؟

والقرآن يعرض لهذا الامتحان صورةً قاسية من أمر النفس، لا من هيئة المال في اليد. ففي سورة الهمزة يقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: 1-4].

تبدأ السورة بلسانٍ يؤذي الناس بالهمز واللمز، ثم تبلغ جمع المال وتعديده، ثم تكشف الوهم الذي استقر في النفس: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾. وبيّن الطبري أن المراد من جمع المال وإحصائه هنا من لم يؤد حق الله فيه، وأن صاحب هذا الظن كأنه يحسب أن المال يزيل عنه الموت. فما كان عيبُه أن عرف الحساب، وإنما أنه جعل المال عِصمةً متوهَّمةً من الضعف والزوال. وفي سياق السورة يلتقي فساد النظر إلى المال بفساد النظر إلى الناس.

قد ينشغل إنسانٌ بحماية ما يملكه، فيرتب لماله من وسائل الحفظ ما لا يرتب لقلبه من أسباب الصلاح. والتقدير والحذر من أسباب التدبير النافع؛ أما الوهم الذي تكشفه السورة فهو أن يطلب الإنسان من المال ما لا يملكه: أن يؤمِّن له البقاء، أو يمنحه حقَّ احتقار الناس.

ولذلك جاءت ﴿كَلَّا﴾ حاسمةً للوهم قبل أن تذكر الوعيد. مالك لا يمنحك خلودًا، ويدُك لا تمسك الأجل. وقد يبلغ حبُّ الشيء أن يطلب منه صاحبه ما يعجز عن تقديمه. إذا أحسن الله إليك بمالٍ وأسباب أمنٍ، فليكن اطمئنانك الأكبر إلى الله لا إلى رصيدٍ يذهب أو يتغير. فالأسباب تحفظ ما أذن الله لها بحفظه، أما القلب فلا يستقر حق الاستقرار إلا حين يعرف ربه ويعتمد عليه.

وكان النبي ﷺ يعلم أصحابه أن الخلل لا يقف عند وهم البقاء، بل قد يبلغ قلب الإنسان وهو يرضى ويسخط. ومن هنا نسمع تسميةً نبوية تكشف حقيقة عبودية خفية.

حين يصير الرضا أسيرًا للدينار

قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ» (رواه البخاري، 2887). في الحديث صورةٌ موجعة: لم يسمّه عبدَ المال لأنه يملكه أو يعمل لتحصيله، بل لأن رضا قلبه وسخطه قد صارا تابعين لما يُعطى منه ويُحرم.

لم يربط النبي ﷺ هذه العبودية بعدد الدراهم؛ بل بموضع الرضا والسخط من القلب. قد يبقى المال في يد صاحبه، وتبقى له معه حرية الاختيار؛ وقد يصير كل عطائه وحرمانه حاكمًا على نفسه. هنا يبلغ الحبُّ حدَّ ﴿جَمًّا﴾: لا حين يكثر المال في اليد، بل حين يصير الرضا والسخط في قبضته.

وفي الحديث نفسه صورةٌ مضيئة في مقابل عبد الدينار؛ قال النبي ﷺ: «طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ»، ثم ذكر موقعه في الحراسة أو الساقة، وأنه لا يُؤذن له إن استأذن ولا تُقبل شفاعته إذا شفع (رواه البخاري، 2887). فالذي كان المال يتحكم برضاه يقابله رجلٌ رضي بخدمةٍ لله لا تزيده في أعين الناس منزلة. هنا تظهر حرية أخرى: أن يحب العبدُ رضا ربه حتى تهون عليه قلة الالتفات إليه.

وقد يصعب على النفس أن ترى استعباد المال وهي تسلك فيه طريقًا مباحًا. لذلك قال النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» (رواه البخاري، 6436؛ ومسلم، 1049، بألفاظ متقاربة). يملك الإنسان ما يملأ واديين، ثم يمتد رجاؤه إلى ثالث. ليس الذمُّ في وجود حاجة جديدة أو خطةٍ مشروعةٍ للنمو؛ إنما يصوّر الحديث شهوةً تنمو كلما وجدت ما يغذيها، حتى لا يقف بها حدُّ الكفاية إذا لم يضبطها قلبٌ يعرف الغاية.

وأجمل ما في ختام الحديث أنه بعد التصوير الشديد لطمع النفس يقول: «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ». ويستطيع العبد، بعد ما ألِفه من الاستزادة، أن يعترف بما استولى عليه، ثم يعود إلى ربه، ويسأله العفاف والقناعة ويحسن ما بقي من عمله. لا يُطلب منه أن يكره نعمة الله؛ بل أن يحب ربه حبًّا يرده إلى الاعتدال حين تجذبه النعمة بعيدًا.

وجاء تحذيرٌ نبوي آخر يبيّن لماذا يكون هذا الخلل خطيرًا على الدين. قال ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ» (رواه الترمذي، 2376، وقال: حسن صحيح). ترى في المثل قطيعًا آمنًا، ثم ذئبين جائعين لا يقف اندفاعهما عند حاجةٍ يسيرة. هكذا قد يدخل الحرص على المال وحب الشرف قلبَ الإنسان فيُفسدان من دينه ما لم يكن يتوقع أنه قابلٌ للفساد. وقد تبلغ الرغبة في إظهار الثروة أن يتغير حكمه على الناس، أو يبيع شيئًا من أمانته في سبيل سمعة أو زيادة.

حين ينسب الإنسان النعمة إلى نفسه

قارون: حين يُنسب العطاء إلى صاحبه

يبدأ القرآن القصة من موضعٍ يزيدها أثرًا: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: 76]. لم يقدمه أولًا بوصفه رجلًا غنيًا، بل بوصفه واحدًا من قوم موسى وقع منه البغي عليهم. ثم يخبر بما أوتي من المال: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: 76]. كثرةٌ يصورها ثقل المفاتيح على جماعةٍ من ذوي القوة. هنا شيءٌ قد تفتن به الأبصار: وفرةٌ هائلة، ومفاتيحُ لا ينهض بها الواحد، ومشهدٌ يسمح لصاحبه أن يرى لنفسه شأنًا فوق الناس.

لكن القرآن يضع في أول القصة فعلًا يجب ألا يضيع تحت بهرج المشهد: ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾. صاحب العطاء هو الله. وفي الكلمة وحدها مفتاحٌ لمعرفةٍ لو استقرت في قلب قارون ما استقام له أن يجيب كما أجاب بعد قليل. ما بيده كثير، ولكنه لم يخلق الأرض التي أخرجت كنوزه، ولا خلق نفسه التي صارت قادرةً على تحصيلها. آتاه الله، وكان عليه أن يعرف مَن آتاه.

ومن رحمة الله بعباده أن القصة لا تترك الغني وحيدًا مع مالٍ أعجبه، فقد جاءته نصيحةٌ عظيمةٌ جامعة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76]. والفرح المنهي عنه هنا فرح البطر والأشر الذي يحمل صاحبه على التجبر والغفلة، كما بين المفسرون؛ فقد أمر الله بالشكر على النعمة وأباح الفرح بفضله في مواضع أخرى. فالمطلوب فرحٌ بالرزق يحمل صاحبه على الشكر، ويحرسه من البطر الذي يعميه عن المنعم وعن عباده.

ثم تأتي الآية التالية كأنها تُري مالكًا ثريًا طريقًا كاملًا إلى عبوديةٍ يحبها الله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

لم يقل قومه: ألقِ مالك وتبرأ من كل ما انتفعت به. قالوا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾؛ اجعل ما أُعطيت وسيلةً إلى ما عند الله. وأنت قادرٌ على الإنفاق والعمل والنفع، تستطيع أن تضع في كل ذلك قصدًا يرفع النعمة من مجرد متاعٍ إلى طاعة. ثم ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ ليكن إحسان الله إليك باعثًا على

إحسانك إلى خلقه. فإذا رأيت شيئًا مما تحب في يدك، فاذكر كيف وصل إليك، وماذا يحب الله أن يصنع قلبك ويدك بسببه.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، فقد ذكر الطبري في تفسيره قولًا يجعل النصيب ما يعمله العبد في دنياه لآخرته، وهو الذي رجحه؛ وروى أيضًا قولًا في طلب الحلال والانتفاع بالمباح. وبيّن ابن كثير أن من هذا النصيب ما أباح الله من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن، مع أداء حق الله وحق النفس والأهل.

وفي هذا الاتساع التفسيري تكاملٌ نافع: يتمتع المؤمن بما أباح الله، ويجعل أيامه وما فيها من مالٍ وقوةٍ وعملٍ مزرعةً لما يبقى عند الله. وهنا يتضح أن المشكلة في قارون لم تكن أنه نال نصيبًا واسعًا من الدنيا؛ بل أنه لم يقبل أن يحكم اللهُ طريقته في رؤية هذا النصيب واستعماله.

وكانت آخر النصيحة: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. تذكيرٌ بأن الثراء إنْ صحَّ طريق اكتسابه لم يصبح إذنًا في البغي، وأن محبة الله لا تجتمع مع الإصرار على الفساد. وللقلب هنا وقفةٌ دقيقة: المؤمن يريد أن يحبه الله، فإذا عرف أن الله لا يحب المفسدين، كان ترك الفساد في المال من شوقه إلى هذه المحبة، لا مجرد خشية عقوبة يفر منها.

وكان لقارون أن يقبل النصيحة، فيكون ماله باب شكرٍ وإحسان؛ لكنه أجاب بما كشف انحراف قلبه:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78]

رجّح الطبري أن قارون ادّعى أن الله آتاه ما آتاه لعلمه بفضله واستحقاقه، فنظر إلى المال كأنه شهادةٌ بمنزلته عند الله. ونُقل في تفسير العبارة أنه نسب ذلك إلى علمٍ وخبرةٍ عنده. وفي الحالين قابلَ تذكيرَ الناصحين بفضل الله بإرجاع الأمر إلى نفسه. وبين ﴿آتَاكَ اللَّهُ﴾ و﴿عِلْمٍ عِنْدِي﴾ المسافة التي قد يقطعها قلبٌ نسي المنعم.

ربما يقول إنسان: درستُ أكثر من غيري، واجتهدتُ حين تكاسلوا، وعرفتُ السوق حين جهلوا. وقد يكون في بعض ذلك وصفٌ لجهدٍ حقيقيّ مشكور. لكن السؤال الذي لا يجيب عنه وصف الجهد: من أعطاك العقل والقوة والفرصة؟ ومن الذي لا تنفك تحتاج إليه في بقاء ما ملكت؟ وهل كونه قد يسّر لك سبيلًا إلى المال يجعلك أعظم قدرًا عنده من عبدٍ لم يتيسر له مثله؟ شرف العمل لا يحتاج إلى نسيان المعطي؛ بل يزيد به شرفًا.

ثم يجيء رد القرآن في الآية نفسها: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: 78]. وهنا استثمر الطبري السياق حجةً على دعوى قارون: لو كانت وفرة المال دليلًا في ذاتها على رضا الله عن صاحبها وفضله عنده، فكيف أهلك الله من كانوا أشد قوةً وأكثر جمعًا؟

إنما الذي أراد قارون أن يجعله شهادةً لمكانته لا يشهد بذلك أصلًا. لم يفسد المال لأنه كثير، وإنما فسد قلب الرجل حين جعل الكثير دليلَ استحقاقٍ وأعرض عن النصح والطاعة. فربك الذي رزقك أعلم بك، والنعمة تدعوك إلى شكره لا إلى تزكية نفسك.

ولكن الفتنة لم تبقَ في قلب قارون وحده.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: 79]. هنا يترك القرآن كنوزه التي وراء الأبواب ويُخرج صاحبها إلى الناس. تبدأ محنة العيون. ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79]. ما الذي أصاب هؤلاء؟ لم يملكوا كنوزه، ولم يُؤمروا أن يدبروها؛ لكن منظرها استولى على تقديرهم، حتى تمنوا منزلةً ربطوها بحظٍ عظيم.

إنها فتنة المتفرج، لا المالك. قد لا يحمل المرء مفاتيح خزائن، ولكنه يحمل صورة الخزائن في نفسه، ويعيد النظر إليها حتى تصير مقياسًا لما فاته من الحياة. وقد يُعظّم صاحبَ الثراء لمجرد ما رأى عليه من الزينة، ثم يصغر في عينه عملُه الحلال، وبيته المستور، وما فتح الله له من وجوه الخير. ولا يحتاج ذلك اليوم إلى خروج رجلٍ في موكب؛ فقد تكفي صورةٌ تتكرر، أو حديثٌ متواصل عن مكاسب الآخرين، حتى يصير قلب الناظر أسيرًا لما لا يملك.

وفي المشهد نفسه ظهر أصحاب نظرٍ آخر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: 80].

لم يُبطل هؤلاء ما يرونه من الزينة، ولم يزعموا أن الثروة التي أمامهم وهم. ولكنهم عرفوا خيرًا أغلى منها، فاستطاعوا أن يسموه في اللحظة التي اشتد فيها سلطان الصورة: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾. وفي التمييز بين الفريقين شيءٌ يستحق أن نستبقيه في القلب: العيون متجهةٌ إلى مشهد واحد، والقلوب تعطيه قيمتين

مختلفتين. من شغلته الدنيا وحدها قال: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون. ومن عرف الله وصدق وعده استطاع أن يقول وهو يرى الزينة: ثواب الله خير.

ومع العلم جاء الصبر: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾. وتحتاج المعرفة إلى صبرٍ يُثبِّت النفس عند الفتنة ويعينها على ألا تتبع كل صورةٍ أعجبتها، وعلى أن تحب ما عند الله أكثر مما يلمع أمام عينيها. ولا معنى لهذا أن يكره المؤمن الغنى المشروع أو يرفض نعمةً تأتيه؛ بل أن يميز بين ما يراه الناس كبيرًا وما هو عند الله أعظم.

ثم يقع الحدث الذي ينقلب به المشهد كله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81]. كان له المال والمفاتيح والزينة والدار، فجاء أمر الله فذهبت القدرة المتوهمة على النجاة. والقرآن هنا يخبر عن عقوبة قارون بعينها؛ فلا يُجعل كل فقدٍ للمال أو انهيارٍ في تجارةٍ علامة عقوبةٍ مماثلة، فإن الأقدار تختلف وحكم الله في الأفراد لا يدركه الناس بمجرد ما يشاهدون.

ولكن الأشد أثرًا أن القرآن لا يترك العيون التي كانت تتمنى مكانه كما كانت. يقول سبحانه: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: 82].

تغير الكلام في الأفواه التي قالت بالأمس: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾. وفي اليوم التالي صاروا يذكرون بسط الله للرزق وتقديره، ثم نعمةً لم يكونوا يلتفتون إليها وهم يتمنون: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾. لقد عدّوا سلامتهم فضلًا من الله بعدما أوشكوا أن يعدّوا فوات تلك الزينة حرمانًا. وهذه توبةٌ في نظر الناظر، وتصحيحٌ لرغبةٍ كانت قد بدأت تُفسد ميزان قلبه.

أقسى ما في قصة قارون ليس ثقل المفاتيح ولا صورة الخسف وحدها؛ بل المسافة التي قطعتها كلمةٌ في القلب من ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ إلى ﴿عِلْمٍ عِنْدِي﴾، والمسافة التي قطعتها عيون المتمنين من ﴿يَا لَيْتَ لَنَا﴾ إلى ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾. الأول نسي المعطي، والآخرون كادوا ينسونه من فرط إعجابهم بما في يد المأخوذ منه. ثم علّمهم القرآن أن كل هذا تحت سلطان الله.

أيُّ غنيٍّ يستحق أن تتمنى مثل عمله؟

وقف المتمنون أمام قارون فقالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصص: 79]. ولكن السنة تفتح للعين بابًا آخر حين ترى المال في يد صاحبه، قال رسول الله ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» (رواه البخاري، 1409).

هذا الحسد المأذون فيه هو الغبطة: أن تتمنى لنفسك خيرًا مثل ما عند غيرك من غير أن تتمنى زوال نعمته. وأمام المال الذي أُعطيه أحد الرجلين لا يعلّق النبي ﷺ الثناء على كثرة ما عنده، بل على أنه أُوتي المال فسلّطه على هلكته في الحق؛ أي أنفقه في وجوهه المشروعة. صار موضع الغبطة فعل الرجل بالنعمة، لا منظرها ولا عددها. وتفترق هذه النظرة عن عينٍ لا ترى في الثراء إلا ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وفي الحديث صورة غنى يحبها المؤمن لذاتها الإيمانية: أن يفتح الله لإنسان باب رزق واسع، ثم يفتح له معه قلبًا يحب الحق، فيأتي المال ويجد صاحبه قادرًا على تقديم مراد الله على نزواته. وقد يقف أمام هذا الإنسان من قلَّ ماله فيغبطه لا لأنه يريد أن يصير أعلى منزلةً من الناس، بل لأنه يشتاق إلى أن يُفتح له باب نفعٍ مماثل يعبد به ربه.

وليس ذلك تقليلًا من عبادة صاحب الكفاية؛ فالنبي ﷺ جمع في الحديث بين صاحب مالٍ يحسن استعماله وصاحب حكمةٍ يقضي بها ويعلّمها. فالمنافسة التي تستحق أن تشغل القلب ليست سباق مظاهر، وإنما طلب ما يقرب إلى الله من العلم والعمل والمال الصالح. والجميل أن يحمل صاحب الثروة هذا المعنى في نفسه فيزداد شكرًا وتواضعًا، ويحمله من لم يُعطَ سعةً مثل سعته فيطلب رزقًا حلالًا نافعًا من غير أن يزدري ما عنده.

﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: 32]. ثم يخبر أن الجنتين آتتا أكلهما ولم تظلما منه شيئًا، وأن نهرًا فُجِّر خلالهما [الكهف: 33]. لقد أُحيط صاحب الجنتين بأسباب نعمةٍ ظاهرة، وكان معه رجلٌ آخر يُحاوره ويعرف أن قيمة الإنسان أكبر من ثمرة أرضه.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34].

ثم يدخل الرجل جنته: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 35]. أمامه زرعٌ ونخلٌ وماء، فتتحول كثرة الأسباب في ظنه إلى استبعاد الزوال. كانت تلك أسبابًا حقيقية لقيام البستان، ولكنه طلب منها ما لا تملكه: دوامًا لا تضمنه.

ثم امتد غروره من شأن البستان إلى تصور الغيب: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]. فمن أعجب ما تكشفه القصة أن زيادة المال قد تُستعمل في النفس حجةً على ما لا سبيل لها إلى العلم به: البقاء في الدنيا، والمنزلة عند الله إن كان رجوعٌ إليه.

وجاء ردُّ المؤمن على من تفاخر عليه بما يملك: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۝ لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 37-38]. لم يحمل صاحبَ المال الأقل ما معه على الصمت؛ كان عنده من معرفة الله ما يحتاج إليه صاحبه الغني. وأيُّ كرامة أعظم من أن يقف الإنسان أمام مالٍ لا يملكه، فلا يتصاغر قلبه، ويهدي صاحبه إلى ربه؟

ثم علَّمه كيف يستقبل النعمة وهو يدخل جنته: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39]. فما احتقر عمله في الغرس والسقي، ولا عابه على فرحته بالثمر؛ وإنما علَّمه أن مشيئة الله فوق الأسباب، وأن القدرة عليها من معونته. وقد فسَّر الطبري هذا المعنى برد الأمر إلى مشيئة الله وقوته. إنها كلمة توحيد يقولها الأقلُّ مالًا للأكثر، ويهديه بها إلى شكر ربه بدل الاغترار بما أوتي.

والأعجب أن المؤمن لم يُخفِ فارق المال بينهما؛ قال: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: 39]. يرى أن صاحبه أكثر منه مالًا وولدًا، ثم ينهض بحق النصح ولا يصمت عن التوحيد. كان الأقل مالًا فاعلًا في الحوار، صاحبَ علمٍ يحتاج إليه صاحب النعمة؛ لا متلقيًا ينحصر دوره في طلب العطاء. ثم ذكّر صاحبه بأن الله قادر على أن يؤتيه خيرًا من جنته، أو يزيل تلك الجنة [الكهف: 40-41].

ثم يأتي خبر الخسارة: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 42]. كان ما يراه ثابتًا قد زال، لكن صوت المؤمن الذي ذكّره بالله سبق وقوع الخسارة. فالقصة في هذا الموضع أبلغ من أن تكون خبرًا عن بستانٍ هلك؛ إنها تبين قيمة الكلمة التي يُعطى بها صاحب النعمة فرصةً لمعرفة ربه وشكره وهو لا يزال في سعتها.

وتختم القصة ببيانٍ لو ملأ القلب لاستغنى به عن غرور كل نعمة: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: 43-44].

وقد يذكر الإنسان فضل الله بوضوح يوم تتغير حياته من مرضٍ إلى عافيةٍ، أو من فقرٍ إلى غنى، ثم تطول الأعوام فيعتاد النعمة حتى يضعف شكره ويُنسيه اعتيادُها حالَه الأولى. في السنة قصةٌ تضع هذا التغير في الذاكرة أمام القلب من غير زخرفٍ ولا استطراد.

من الذي أعطاك أول مرة؟

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ حدَّث عن ثلاثةٍ من بني إسرائيل: أبرصَ وأقرعَ وأعمى، أراد الله أن يبتليهم، فأرسل إليهم مَلَكًا. سأل كلَّ واحدٍ عما يحب أن يزول عنه من البلاء، ثم عما يحب من المال. فعافاهم الله مما كانوا فيه، وأعطي أحدهم من الإبل، وآخر من البقر، والثالث من الغنم، وبارك الله لهم حتى صار لكل واحدٍ منهم وادٍ من المال الذي أُعطيه (رواه البخاري، 3464).

عاد الملك إلى الأول في هيئة رجلٍ أصابه من البلاء ما كان أصابه، وسأله أن يعطيه ما يبلغه سفره، وذكّره بمنّ الله عليه بعد الفقر والمرض. فقال صاحب المال: «إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ». ثم لما ذُكّر بحاله الأولى وبنعمة الله عليه قال: «لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ». وجاء الاختبار إلى الثاني، فكان جوابه في معنى جواب الأول.

وذهب الملك إلى الأعمى الذي رد الله إليه بصره، فسأله عونًا في سفره، فكان جواب هذا الرجل مختلفًا من أوله إلى آخره: «قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي». ثم أذن للسائل أن يأخذ ما يحتاج إليه لله، فقال الملك: «أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» (رواه البخاري، 3464).

تأمل الجوابين من حيث العلاقة بالله. الأول نسب المال إلى وراثةٍ تكفلت بمحو القصة الحقيقية في هذا الخبر، والثالث بدأ بذكر ما كان عليه، ثم نسب نعمتين إلى الله: البصر والغنى. ما قال: أنا رجلٌ كريمٌ أقدر على العطاء، قال: كنت أعمى فرد الله بصري، وكنت فقيرًا فأغناني. فكأن تذكر النعمة الأولى أبقى قلبه متواضعًا عند النعمة الثانية. وحين زال عنه البلاء لم يزل من قلبه الافتقار إلى من أزاله.

وأشرق آخر المشهد بقول الملك له: «أَمْسِكْ مَالَكَ». لم يذهب الصدق بنعمته، بل كان بقاؤه على شكر الله ورحمته بالضعيف موضع رضوان. فالرجل الذي قال «كنت أعمى فرد الله بصري» حفظ في قلبه

معرفة المنعم حين اتسعت يده، وأثمن ما عاد به من الامتحان رضا الله عنه. فاسأل نفسك حين تتحدث عن مالك: أتذكر مَن أعطاك أول مرة، أم صار حديثك كله عن تعبك وما ورثت؟

إذا تزاحمت المحابُّ، مَن تتقدم محبته؟

جاءت آية من سورة التوبة تجمع للإنسان من المحبوبات ما يعرفه في أقرب حياته: الأب والأبناء والإخوة والأزواج والعشيرة، والأموال التي اكتسبها، والتجارة التي يخشى كسادها، والمساكن التي يرضاها. ثم تضع هذا كله أمام محبةٍ أعظم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

ولهذه الآية سياقٌ ينبغي ألا يغيب: فقد بيَّن الطبري أن الخطاب يتصل بمن آثروا المقام بين الأهل والأموال على الهجرة إلى الله ورسوله والجهاد في سبيله في ذلك المقام. فلا ننقل أحكام ذلك الظرف التاريخي إلى كل سفرٍ أو تجارةٍ أو انتقال بين بلدين. لكن الميزان الذي تتضمنه الآية واضحٌ باقٍ: إذا تعارض محبوبٌ من الدنيا مع طاعةٍ أوجبها الله في موضعها، فإن صدق المحبة يظهر في تقديم أمر الله ورسوله.

ولا تحتقر الآية هذه المحبوبات حتى تستحق المقابلة. إنها تدرك أن التجارة قد يبذل صاحبها في بنائها سنواتٍ من عمره، وأن البيت قد يسكن إليه المرء وتأنس به أسرته، وأن القربى أحب الناس إلى قلبه. ثم تقول له: إذا دعاك الله إلى طاعةٍ لا بد منها، فلا تجعل ما تحب من هذه الأشياء أحبَّ إليك من الله ورسوله. وهذا أبلغ في تزكية المحبة من دعوة الإنسان إلى إنكار عواطفه أو إضاعة مصالحه.

أكثر ما يمتحن القلب هنا أن المحبة لا تُقاس بمقدار ما يتحدث عنها الإنسان، تكشفها القرارات حين تتزاحم الأشياء. قد يحب تاجرٌ ما بناه من أعمال، ثم يجد أن صدقه سيكلفه ربحًا يراه قريبًا، فإذا أحب رضا الله أكثر ثبت على ما يعلم أنه الحق. وقد يحافظ إنسانٌ على مكانته الاجتماعية، ثم يعرض له عمل صالحٌ خفيٌّ لا يحصد به ثناء أحد، فإذا أحب الله أكثر هانت عليه قلة الالتفات. وتلك مواقف تظهر فيها ثمرة المحبة حين تصير طاعةً واقعةً.

قد يؤلمك فواتُ فرصةٍ كنت ترغب فيها، وقد تجد مرارةً حين تترك مكسبًا لأن فيه ما لا يحل. ليست المحبة لله أن تفقد الإحساس بالألم، بل أن تضع في لحظة الاختيار مرضاته فوق ما اشتهته النفس، ثم تستعين به حتى يطمئن القلب. وبهذا يُعبد الله بمحبةٍ صادقة تتغلب على الهوى، لا بدعوى شعورٍ لا يمتحنها عمل.

وهنا يتسع الميزان من تقديم الطاعة إلى محبة المعبود، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165]. جاءت الآية في مقابلة محبة المؤمنين لله بمحبة من اتخذوا أندادًا من دونه، وهي تقيم في القلب معيارًا أعظم: أن يستأثر الله بأعلى المحبة والتعظيم. ليست كل محبةٍ للمال من جنس تلك المحبة الشركية، لكن المؤمن يتعلم أن يحب النعمة تحت محبة المنعم، وأن يزداد بالشكر والاتباع قربًا ممن لا يستغني عنه طرفة عين.

إذا أكرمك الله بمال، فاسأله أن يزيدك به شكرًا وقربًا، وأن يفتح لك من الحلال ما ينفعك. وإن وجدت قلبك يشتد تعلقه بشيءٍ من الدنيا، فاستعن بمحبته سبحانه على ردّ النعمة إلى موضعها؛ وليكن فرحك بما أعطاك بابًا إلى الأنس بالمعطي، وأن تكون الطاعة عند الاختيار أحبَّ إليك من المكسب الذي يفوت.

تملك الشيء وتأنس به، ويبقى قلبك لله! تفرح بكسبٍ طيب، وتأنس ببيتٍ جميل، وتحفظ ما تحتاجه أسرتك، وتريد النماء في عملٍ مباح؛ ولكن الله أحبُّ إليك من هذا كله، ورضاه أعظم عندك من أن تستبقي لأجله مالًا يضيع به حقٌّ واجب، أو تُظهر به فوقيةً على إنسان، أو تنسب نعمةً إلى نفسك ناسيًا مَن أعطاك.

وتبقى لحظةٌ أخرى قد يكون الامتحان فيها أشد خفاءً: لا تطلب النفس زيادةً جديدة، لكنها تخاف أن ينقص ما عندها. فيشتد التعلق بما تملك، وتجد نفسها أمام حقٍّ يجب أداؤه، وتوقعات غدٍ لا تدري ما الذي يقع منها. هنالك يظهر وجهٌ آخر من عبودية المال، حين يتقدم الخوف ليطلب من القلب القرار.

من يَعِدُك الفقر؟

الخوف والشح

من يَعِدُك حين تمتد يدك؟

قد يحين موعدُ حقٍّ ينبغي إخراجه من مالك، فيتقدم إلى ذهنك كلُّ ما تخشاه من الغد: مرضٌ قد يقع، وعملٌ قد يتعطل، ونفقةٌ لم يأت أوانها. فتجد يدك أبطأ مما كانت، لا لأنك تجهل حقَّ من أمامك، بل لأن الخوف يُريك ما لم يقع كأنه أقرب من الواجب الذي حلَّ وقته. وفي لحظةٍ كهذه يبرز سؤال لا يظهر في دفاتر التجارة: من الذي يُملي عليك معنى الخوف، وإلى أين يقودك؟

وقد يكون خوف الغد رحمةً بأسرةٍ تعتمد عليك؛ فتدّخر لها ما تحتاجه، وتدفع عنها العجز ما استطعت. ولكنه قد يتحول، من حيث لا تشعر، إلى حجةٍ لا تنتهي: كلما حان أداء حقٍّ واضحٍ جاء احتمالٌ جديد يجعل إمساكه يبدو ضرورة. هنا يُمتحن صدق النظر إلى المستقبل: أيُّ حاجةٍ تحفظها فعلًا، وأيُّ خوفٍ يجعل المال في يدك أحبَّ إليك من حقٍّ تعرف أن الله أوجبه؟

وهنا يجيء القرآن إلى موضع القرار نفسه، في سورة البقرة، بعد أن أمر المؤمنين بالإنفاق من طيبات ما كسبوا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 267]. فالمطلوب مالٌ طيب، يأتي من كسب الإنسان ومما أخرجه الله لعباده، وتصل به الطاعة إلى دنياهم التي يعملون فيها ويزرعون. ثم تكشف الآية التالية من أين قد يأتي الاعتراض الذي لا تسمعه الأذن:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268].

وفي الآية يقف القلب بين وعدَين مختلفين: تخويفٍ بالفقر إذا أطاع، ووعدٍ من الله بالمغفرة والفضل. يجعلك أحدهما ترى الغد كأنه بابٌ يُغلق ما لم تحبس المال الآن، ويُريك الآخر أن المستقبل بيد ربِّك الذي يعلم ما أنفقت وما أبقيت. تأخذ بالأسباب، ثم تختبر قلبك: أيُّ الوعدين يحكم قرارك حين يتبين لك الحق؟

وفسّر الطبري وعد الشيطان بالفقر بأنه تخويف المؤمن من الفقر بسبب الصدقة وأداء الزكاة، وفسّر أمره بالفحشاء بأنه حثٌّ على معاصي الله وترك طاعته. بهذا يضبط التفسير موضع الآية: خوفٌ يصرف عن النفقة التي أمر الله بها، لا مجرد إحساس بشري بالحاجة أو تقديرٍ رشيد لما يلزم البيت.

في التعبير ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ كشفٌ لطريقةٍ دقيقة في إغواء النفس. فالشيطان لا يملك أن يأتيك بفقر الغد، لكنه يقذف في قلبك صورته، ثم يريد منك أن تعامله كأنه وقع. قد يكون الواجب الذي بين يديك معلومًا، أما الخسارة التي تتخيلها فلا تعلم وقوعها؛ ومع ذلك يوشك المجهول أن يصير أقوى في القرار من المعلوم. أيُّ خسارةٍ أعظم من أن يحبس خوفُ ما لم يقع حقًّا قد أوجبه الله اليوم؟

وإذا عَرض الخوف نفسه في ثوب النصيحة، كان ميزانُه حقَّ الله الذي لا يتغير بتخمينٍ مجرد. من الحكمة أن تحفظ قدرًا معلوم الحاجة لنفقةٍ تلزمك، وأن ترتب دينًا حلّ أجله، وأن تتثبت من مواردك. أما أن تُرَدَّ حقوق الناس المؤكدة إلى أجلٍ لا يأتي لأنك تتوجس من كل يومٍ تالٍ، فذلك موضعٌ تحتاج فيه النفس إلى أن تختار طاعة الله على سلطان الخوف.

ثم يتبدل الصوت كله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾. لم يَقُل الحقُّ سبحانه: ستصير أكثرَ مالًا من كل مَن أمامك؛ بل فتح وعدًا أكرم من كل مقدار: مغفرةً منه وفضلًا. الذي أمرك لا يحتاج إلى درهمٍ من مالك، ومع ذلك دعاك إلى طاعةٍ تعود عليك بالخير. وإذا وقفت أمام حقٍّ يلزمك إخراجه، فتذكر أنك لا تؤدي مالًا إلى غائبٍ عن حالك؛ ربُّك يعلم خوفك وحاجتك، ويرى كيف اخترتَ أمره.

يَرِدُ وعد الله بالمغفرة قبل الفضل؛ فالمغفرة أعظمُ ما يطمح إليه عبدٌ عرف تقصيره. وليست الآية تعهّدًا بزيادةٍ نقديةٍ محددةٍ لكل من أنفق، بل وعدٌ كريمٌ أوسعُ من صورةٍ عاجلةٍ يختارها الإنسان لنفسه. وهنا موضعُ ضبط هذا الفهم، كي يبقى رجاءُ العبد معلقًا بالله وبما صحّ من وعده، لا بمبلغٍ يتوقعه في موعد.

ثم تُختم الآية بما لو سكن القلبَ لأعانه على أحسن القرار: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. واسعٌ لا تضيق خزائنه بما يعطي، عليمٌ لا تغيب عنه نفقتُك ولا حاجةُ مَن تعول ولا ما تُخفيه من خوف. أنت لا تعلم غدك، وهو يعلم؛ وأنت لا تملك إلا أسبابًا محدودة، وهو ربُّ الأسباب كلِّها. فلا تُلقِ هذه المعرفةُ بالتدبير من يدك، بل تُعيده إلى موضعه: سببٌ تبذله وأنت تحبُّ ربًّا يعلمك ويرعاك، ولا تجعل جهلَك بالمستقبل عذرًا لتعطيل أمره.

وبعد الوعدين يأتي قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]. ليست كل نفقةٍ حسنةً بمجرد خروج المال، ولا كل إمساكٍ شحًّا. من الحكمة التي يُحتاج

إليها هنا أن يضبط العبد الإنفاق بما أمر الله، وأن يقدّم الواجب على النافلة، وأن يعرف أين يحفظ به النعمة وأين يصير الحفظ حبسًا للحق. وأكرم ما يطلبه من الله أن يؤتيه بصيرةً تُقيم حركته بالمال على طاعته.

شُحٌّ يضيق بالحق قبل أن يضيق بالمال

في سورة الحشر يصف الله الأنصار في سياق الفيء والمهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

يذكر الله الأنصار الذين أحبوا المهاجرين، ولم تضق صدورهم بما أُوتوا، ثم وصفهم بالإيثار مع الخصاصة. والإيثار مقام فضلٍ في سياقه، أما الواجب فمقدمٌ على النافلة؛ فلا تُترك نفقةٌ لازمةٌ ولا يُضيَّع حقٌّ باسم الإيثار. وبعد هذا المشهد يجيء ميزان القلب الجامع: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. من الذي يهب الإنسان هذه الوقاية حين تعزُّ عليه نفسه وماله؟

وفي قوله تعالى ﴿يُوقَ﴾ ردٌّ للقلب إلى الله؛ فسلامته من الشح عطاءٌ يحتاج أن يسأله ربه. وروى الطبري عن أبي الهياج الأسدي أنه رأى رجلًا يطوف بالبيت لا يزيد على قوله: «اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي». فسأله، فقال: «إِنِّي إِذَا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أَسْرِقْ، وَلَمْ أَزْنِ، وَلَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا»؛

فإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (رواه الطبري في تفسير [الحشر: 9]، والفاكهي في أخبار مكة، رقم 415، وحسَّن إسناده محقّقُ أخبار مكة). لم يكن يسأل زيادةً في مالٍ يملكه، بل وقايةً من هوى النفس الذي قد يحملها على تجاوز حدود الله. وهذا من عميق العبودية: أن يعرف المرءُ خطرَ نفسه، فلا يغتر بما ناله من فضل، ويسأل ربَّه أن يحفظ عليه الدين والعدل.

وروى الطبري عند الآية عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه فرّق بين البخل المذموم وبين الشح الذي يحمل على أكل مال الأخ ظلمًا. ونقل عن ابن زيد معنىً يجمع الامتناع عن إخراج ما أُمر به وأخذ ما حُرِّم. فلا يصح أن يُجعل كلام ابن مسعود إباحةً للبخل، وإنما يكشف خطرًا أشد: أن تمتد النفس إلى حقِّ غيرها، أو تصدُّ صاحب حقٍّ عن حقه. وحيث يختلف المصطلح في كلام المفسرين، يبقى ميزانُ الفعل أوضح: أَتَمُدُّ يدك إلى ما حرم الله، أو تمنع ما أمر بإخراجه؟

قد يحفظ المرء مالًا فيكون أمينًا على مستقبل أسرته، وقد يمسك مبلغًا هو حقٌّ لمن يعمل لديه، ويعدُّه من ماله لمجرد أنه ما زال تحت يده. قد يتشابه المقدار، ويختلف الحكم عند الله بحسب الحق المتعلق به.

وكذلك من يحسن إظهار الكرم في وجوهٍ يراها الناس، ثم يضيق بما يلزمه خفيةً. الشح لا يُختبر بما تبدو عليه اليد في العيون وحدها؛ بل بموقع الحق عند صاحبها.

وقد ذكر الله قبل الإيثار وصفًا للقلب نفسه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾. إنهم أحبوا المهاجرين ولم يضق بهم ما نالوا. وهنا وجهٌ من سلامة النفس يسبق إخراج المال: أن تنشرح لرزق أخيك، فلا تَحمِل نعمتُه إليك معنى الإهانة، ولا يستولي عليك سؤال: لِمَ أعطي هو ولم أُعطَ أنا؟ فمَن طابت نفسه لغيره أمكنه أن يفرح بفضل الله على عباده، ولو اختلفت أرزاقهم.

وعند ختم الآية يسمّي الله الوقاية من الشح فلاحًا: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. قد تُضاف أرقامٌ إلى رصيد الإنسان وتبقى نفسه ضيقة، وقد يخرج حقٌّ من يده فيجد فيه سعةً لم تُشترَ بمال. ألا يحبُّ العبد أن يوفقَه الله إلى العدل حين تثقل عليه الطاعة؟ الفلاح الذي وعد به الله لمن وقاهم الشح أكرم من حفظٍ عابرٍ للمال؛ إنه قلبٌ أطاع مولاه.

وتعود القاعدة في سورة التغابن، ولكن في سياقٍ يواجه الإنسان فيه أهلَه ومالَه وولده معًا. يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]، ثم يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16].

في هذه الآيات رحمةٌ وحزمٌ معًا. تُذكر الأموال والأولاد في موضع الابتلاء، ويُذكَر الأجر العظيم عند الله، ثم يأتي الأمر بتقواه بحسب الاستطاعة، والسمع والطاعة والإنفاق. وفسّر الطبري ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ بأن تنفقوا من أموالكم ما تنقذون به أنفسكم عند الله؛ فالخير في هذا الموضع المال. العطاء المحمود يحفظ حاجات الأسرة التي ائتمنك الله عليها، وينضبط الجميع فيه بالأمر والقدرة والحق. وكذلك ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ باب عدلٍ ورحمة، لا رخصةٌ في تجاهل واجبٍ يقدر عليه صاحبه.

وقد يمتد الشحُّ من حبس ما في اليد إلى التطلُّع لما لم يدخلها بعد؛ فتظل النفس تستشرف عطاءَ الناس حتى حين تقدر على الاستغناء عنه. وتضع السنة أمامنا رجلًا علّمه النبي ﷺ أن يُصلح جهةَ الأخذ كما أصلح الوحي جهةَ الإمساك.

السائل الذي غيَّر سؤاله

روى حكيم بن حزام رضي الله عنه خبرًا عن نفسه، قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي». ثم جاءته كلماتٌ من النبي ﷺ غيَّرت ما بعد ذلك من حياته: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» (رواه البخاري، 1472؛ وله في البخاري، 6441، لفظ «بِطِيبِ نَفْسٍ»).

أعطاه النبي ﷺ كلما سأله، ثم علّمه. لا عتابَ يجرح السائل، ولا إذلالَ لمن أظهر حاجته؛ بل تربيةٌ رفيقة تنقل البصر من المال الذي يُستلم إلى النفس التي تستقبله. كان الدرس في لحظة الأخذ، لا في مشروعية العطاء وحدها؛ فما الذي تصنعه الرغبة بالقلب قبل أن تدخل الدراهم اليد؟

وصف النبي ﷺ المال بأنه «خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ»؛ وهو شيءٌ تُقبل عليه النفس وتتذوق حلاوته. ثم فرّق بين الأخذ «بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ» وبين الأخذ «بِإِشْرَافِ نَفْسٍ». قد يقبل الإنسان عطاءً أُبيح له وهو غير متطلعٍ إليه، فيكون القلب أهدأ من يدٍ تلاحق كل ما عند الناس. إن موضع الفرق في الحديث حال الآخذ وشدة تشوفه، لا مجرد انتقال المال إلى ملكه.

ثم صور النبي ﷺ حال المتشوف: «كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ». قد تنال النفس شيئًا فتفقد لذته قبل أن تحمد الله عليه؛ لأنها بدأت تطلب ما بعده. هنا يُرى القلب في مقام الأخذ من الناس، وقد أفسد استشرافُه بركةَ ما وصل إليه. يقدر المؤمن أن يحب الرزق ويرجوه من الله، دون أن يصير كل ما في يد إنسانٍ آخر حاجةً ملحّةً في نفسه.

ثم تأتي الكلمة التي ترسم للعبد غايةً يحبها: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى». ويعمل الإنسان ويجد في يده ما يكفيه ويعينه على نفع غيره. وليس في هذا هوانٌ للمحتاج الذي يسأل بحق، ولا إسقاطٌ لحقوق مَن ضاقت عليه الأسباب؛ فالرسول ﷺ أعطى حكيمًا قبل أن يعظه. لكن القادر يُدعَى إلى عزة الاستعفاف، وإلى كرامة السعي، وإلى أن يطلب من الله كفايةً تحرّر قلبه من التعلق الدائم بعطاء البشر.

وهنا جاء جواب حكيم رضي الله عنه على قدر ما بلغ قلبه من التعليم: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا» (رواه البخاري، 1472). وفي تمام الخبر أن أبا بكر رضي الله عنه كان يدعوه إلى العطاء فيأبى، ثم عرض عليه عمر رضي الله عنه حقَّه من الفيء فأبى أن يأخذه، حتى أشهد عمرُ الناس أنه عرض عليه حقَّه فامتنع عن قبوله. فظل حكيمٌ على عهده إلى أن تُوفّي.

لم تُلزم الموعظةُ حكيمًا بترك المال، وإنما أثمرت في قلبه عهدًا حمله بعد حياة النبي ﷺ. وعرض عليه عمر حقَّه من الفيء، كما قال عمر نفسه، فترك أخذه باختياره. وحين يُقرأ الخبر لا يصح أن يُجعل اختيارُه

قاعدةً لإسقاط حقوق الناس، ولا للامتناع عن حقٍّ يحتاج إليه العبد ومن يعول؛ إنما موضع القدوة ما أورثته الكلمة النبوية في نفسه من قوةٍ على ترك الاستشراف.

وفي هذا المشهد يخرج الإنسان بكنزٍ لا يراه أحد: حريةٌ من طلبٍ لا ينتهي. لقد سبق حكيمًا إلى يدِه العطاءُ ثلاثًا، ثم سبقت الموعظةُ إلى قلبه، فغيَّرت استقباله للعطاء بعد سنوات. أحبَّ أن يبقى محتاجًا إلى فضل الله، مستغنيًا عن الاستكثار مما في أيدي الناس؛ وأكرم اللهَ بالعبد حين يزهد في سؤال المخلوقين دون أن يزهد في رحمة الخالق.

وجاءت السنة بخبر آخر يكمّل هذا المعنى من جهةٍ مختلفة؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ» (رواه مسلم، 1053).

بدأ النبي ﷺ بالكرم، ثم دعا إلى الاستعفاف والصبر. وفي القصة ميزانٌ لا يظلم أحدًا: حقُّ المحتاج محفوظ، وباب الإعانة مفتوح، وصاحب القدرة يُرغَّب في السعي والكفاية. فلا يواجه صاحبُ حقٍّ من يقول له: استعفف ودع حقك؛ فالاستعفاف فضيلةٌ تُطلب من النفس، والحقوق أوامرُ لا يسقطها استحسانُ المرء لخُلقٍ آخر.

وخاتمة الحديث تفتح بابًا لا يفتحه المال بذاته: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ». سمَّى رسول الله ﷺ الصبرَ عطاءً، مع أن المرء قد يفتقر إليه وهو يفتقر إلى الطعام والكسوة معًا. فإذا علم العبد أن الله يعينه على الصبر، قوي على العمل والانتظار والوفاء بالحق، ولم تصبح حاجته إليه عذرًا لأن يقسو على نفسه أو على الناس.

إذا عرض عليك مالٌ مباح، فليس أول السؤال كم ستزيد به ثروتك، وإنما: هل هو حقٌّ لي؟ وهل أخذه يعينني على واجبٍ أو حاجةٍ معتبرة، أم يزيد تعلقي بما في أيدي الناس؟ قد تقبل بطمأنينة ما أُبيح لك من غير سؤال، وقد تحتاج أن تطلب حقًّا لا غنى لك عنه. وفي الحالين يبقى رجاؤك الأكبر في الله، وتَطلب منه نفسًا تحسن الأخذ كما تحسن البذل.

عينٌ إن طالتْ على رزق غيرها ضاق رزقُها

قد لا تسأل إنسانًا مالًا قط، وتظل نفسُك مع ذلك معلقةً بما يملكه. تُحدّث نفسك: لو كان لي بيتٌ مثله لطمأننتُ، ولو بلغتُ دخله لارتحتُ، ثم تأتي زيادةٌ تحبها فلا تكاد تشعر بحلاوتها؛ لأن المقارنة سبقتها إلى القلب. إن استشراف اليد إلى العطاء مفهومٌ ظاهر، وأما استشراف العين فهو أدقّ: يستولي على الرضا من غير أن تُنقص من مالك درهمًا.

وجاء في سورة طه خطابٌ بالغ الرقة والقوة إلى رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131].

لا يأمر الله نبيه ﷺ بأن ينكر وجود الزينة، فالآية تسميها ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. والزهر جميلٌ تُقبل عليه العين، لكن جماله العابر لا يكشف ما يبقى ولا منزلة صاحبه عند الله. وقد فسَّر الطبري الزهرة بزينة الدنيا ونضرتها، وبيّن أن ما مُتّع به أولئك ابتلاءٌ لهم. ثم فسر ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ بما ادخره الله لنبيه ﷺ من الثواب الباقي. فأمام النظر إلى زينةٍ عاجلةٍ يضع القرآن خيرًا آخر، لا تذهب قيمته حين تتبدل الأشياء التي يراها الناس كبيرة.

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ وصفٌ لحركةٍ اختياريةٍ تطول بها المقارنة. قد تمرُّ بك نعمةٌ عند أخيك فتفرح له، وتتعلم من نجاحه، وتدعو الله أن يفتح لك من فضله؛ لكنك حين تكرر النظر حتى يصير رزقه حاكمًا على رضاك، تكون العين قد سحبت القلب من الشكر إلى الحسرة. يومئذٍ تحتاج العين إلى عبودية الكفّ، كما احتاجت اليد من قبل إلى عبودية العدل.

ولذلك قال النبي ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ» (رواه مسلم، 2963). وفي البخاري (6490) توجيهٌ إلى من نظر إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلْق أن ينظر إلى من هو دونه في ذلك.

لم يقصد الرسول ﷺ أن يربي احتقارًا للفقير أو شماتةً بالمبتلى؛ إنما يعلم القلب أن المقارنة الدائمة بمن فوقه في حظوظ الدنيا قد تنزع منه رؤية النعمة. فإذا التفت إلى ما يعانيه الناس من نقصٍ في بعض أسباب الحياة، وعرف ما سُلِّم له من حاجاته، انفتح باب الشكر بدل باب التبرم.

وحين يتغير تقديرُ النعمة في النفس، فقد ترجع إلى بيتك فلا يتسع جدارٌ ولا يزيد دخل، ولكنك ترى في الطعام الذي كفاك الله، والعافية التي أعانك بها على عملك، والنفقة التي استطعت أداءها، فضلًا كان يغيبه عنك التطلع إلى غيرك. حين يتغير الميزان يعود بعض الفرح إلى الأشياء نفسها. والقناعة هنا شكرٌ لما أعطاك الله مع استمرار السعي، لا مطالبةٌ للمحتاج بأن يرضى بحرمانه من أساسيات الحياة.

ووراء هذا كله عطاءٌ قرآني آخر أجمل من مجرد معالجة المقارنة: الآية التي تأتي بعدها في السورة نفسها. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132].

بعد قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ يأتي الأمر بالصلاة في البيت: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. هذا انتقالٌ من زهرة الدنيا إلى ما يبقى نفعه في القلب. لم يُترك القلب بعد صرفه عن زهرة الدنيا فارغًا، وُجِّه إلى الوقوف بين يدي الله، وإلى رعاية عبادة أهل البيت، وإلى صبرٍ يثبت على ذلك. فكأن الذي أفسدته العين بالمقارنة يصلحه القلب حين يَصدُق في العبادة.

ثم يأتي ما يستحق أن يحملَه المؤمن من هذه السورة إلى كل مجلسٍ يُذكر فيه المال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾. قال الطبري: لا نسألك مالًا بل نكلفك عملًا ببدنك، نؤتيك عليه ثوابًا، ونحن نعطيك المال ونرزقك. ربُّك غنيٌّ عن عملك ورزقك، ومع هذا يناديك إلى عبادته. أنت المحتاج إلى أن تُرزَق وتُهدَى، وهو الذي أوجد الأسباب ودعاك إلى أن تقوم للصلاة. في هذه الكلمات يخلُّ وهمٌ شديد: لستَ مسؤولًا عن أرزاق الخلق، ولا أنت وحدك الذي يُمسك أسباب حياتك؛ ما عليك أن تطيعه وتأخذ بالسبب الذي أذن فيه، وأن تثق برحمته وعلمه.

وعندئذٍ لا تُقاس الصلاة بمبلغٍ يأتي بعدها، ولا يُتّهم صالحٌ بضيق رزقه. هذه الكلمات أوسع من معادلة مالٍ بمال: الله هو الرازق، وقد اختار لك أن تكون له عبدًا، تصلي وتعمل وتؤدي ما عليك وترجو فضله. والعبد الذي يحب ربه لا يجعل همَّ المعاش يحجبه عن المناجاة، بل يجد فيها من السكينة ما يعينه على حمل همِّه بصدقٍ وصبر.

ونقل الطبري عن عروة بن الزبير رحمه الله أنه كان إذا رأى شيئًا مما عند أهل السلطان عاد إلى بيته، وقرأ هذه الآيات من سورة طه، ثم نادى أهله إلى الصلاة. نعمةٌ ظهرت أمام العين، فقابلها الرجل بتلاوةٍ وصلاة، لا بأن يسرد على نفسه ما فاته من متاع الناس. لم يغيّر ما في أيديهم، وإنما عالج ما في قلبه، وجعل لأهل بيته نصيبًا من الرجوع إلى الله.

ومن سعة القلب أن يقول الإنسان «يكفي» حين تكفيه النعمة، وأن يقول «هذا حقُّ غيري» حين تعرض له زيادةٌ ليست له، وأن يقول عن مال أخيه «ليس لي» دون حسرةٍ تفسد عليه الحمد. ثم يعمل من جديد، ويطلب من الحلال ما ينفعه، ويرجو من الله أن يبارك له فيما رزق. قد لا تُدوَّن هذه القرارات في سجلِّ أعمالٍ يطلع عليه الناس، لكنها تكشف صدق العبودية في يدٍ تحفظ الحق وقلبٍ يعرف الرزاق.

وقد كان رسول الله ﷺ يجعل استعاذته بالله حاضرةً في هذه المواضع التي يضيق بها قلب الإنسان؛ قال أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ» (رواه البخاري، 6369).

في الدعاء استعاذةٌ من بخل القلب ومن ثقل الدين ومن أسباب العجز التي قد تُضعف الإنسان عن عمله وحقوقه. وكان النبي ﷺ يستعيذ بربه، وهو أكرم الخلق وأعرفهم بالله؛ فأيُّ فقرٍ إلى الله أعظم من أن نطلب منه أن يُصلح فينا ما لا نملك إصلاحه وحدنا؟ من هنا تبدأ قناعةٌ حيّة: تدعو وتتدبر وتعمل، لا تكتفي بتسمية نفسك قنوعًا.

والمال الذي عرفتَ كيف تحبُّه بقدر، وكيف تحفظه بلا شحّ، ما زال له طريقٌ يأتي منه إلى يدك. فهل يستوي عند الله كسبٌ يرضاه وكسبٌ يغضبه لمجرد أن المقدار واحد؟ هكذا يصير طلبُ الرزق نفسه موضعَ السؤال: بأي طريقٍ تدخل نعمة الله بيتك، وكيف تحبُّ الرازق في سبب الكسب كما أحببتَه في حسن التدبير؟

من أين اكتسبه؟

صدق الكسب وعبادة السوق

ربما بقي بينك وبين ربحٍ تنتظره أن تقول جملةً واحدة. أنت تعرف في السلعة عيبًا لم يره المشتري، أو تعلم أن جزءًا من الخدمة لن يُسلَّم كما وُعد، أو تستطيع أن تضع رقمًا في فاتورةٍ يصعب على صاحبها التحقق منه. قد تتغير الصفقة كلها إن قلت الحقيقة. وتستطيع أن تسكت؛ فلن يعلم الطرف الآخر في الغالب ما أخفيت. لكن الله يعلم.

لعل المال الذي ترجوه يسد حاجةً حقيقية، وقد تعبت حتى بلغت هذا الموضع. ولك أن تطلب ربحًا حلالًا وتفرح به. إنما صار بين يديك سؤالٌ أثقل من المبلغ: أتحب أن يدخل هذا المال بيتك من طريقٍ ترضى أن تلقى الله به؟ هنا لا يجري الامتحان بعد قبض الراتب أو توزيع الربح؛ إنه يقع قبل ذلك، في الكلمة التي تقولها، والحق الذي تُقرّ به، والطريق الذي تسلكه.

وفي الحديث المروي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ» (رواه الترمذي، 2417، وقال: حديث حسن صحيح؛ وصححه الألباني).

أربعةُ مجالاتٍ من حياة العبد حوتها الرواية، وللمال فيها سؤالان: من أين جاء، وأين ذهب؟ ليس حسن الإنفاق إذن إذنًا بأن يُجمع المال من أي طريق. وقبل أن يُفكّر المرء فيما سيتصدق به من أرباحه، عليه أن يسأل عن أصل هذه الأرباح: أهي من عملٍ مباحٍ وحقٍّ أدَّاه، أم من مالٍ لم يُبحه الله؟ وهذا المعنى تحكمه كذلك آياتُ الوفاء والنهي عن أكل المال بالباطل، فلا يقوم على هذا الخبر وحده.

ومن هذا الموضع نفسه يأخذ القرآن بيد طالب الرزق إلى قومٍ بُعث فيهم نبيٌّ لم يفصل دعوته إلى توحيد الله عن مكيال السوق وميزانه.

﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ — حين يدخل أمر الله السوق

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: 84].

بدأ شعيب عليه السلام بأصل الرسالة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، وجاء النهي عن نقص المكيال والميزان في الآية نفسها. فالذي يقول: الله ربي، لا يستطيع أن يجعل بيعَه منطقةً بعيدةً عن أمر ربه.

حين يملأ إناءً لمشترٍ، أو يضع وزنًا على الميزان، تظهر عبوديته في شيءٍ يمكن للناس أن يروه، ويعلم الله منه ما تخفيه اليد.

ويقول شعيب لقومه: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾. كانوا في سعةٍ من العيش على ما ذكره المفسرون، ومع ذلك ظهر في معاملاتهم البخس. قد تأتي المعصية من حاجةٍ شديدة، وقد تأتي من نفسٍ لا تشبع ولو وجدت الكفاية. فالنعمةُ التي كان ينبغي أن تُورثهم الشكر لم تمنعهم من أن يُنقصوا غيرهم؛ فكيف يرضى مَن يعرف الله أن يجعل فضله وسيلةً لظلم عباده؟

ثم يكرر النبي شعيب عليه السلام الأمر ليُظهر ما ينبغي أن يكون عليه السوق: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85].

بعد النهي عن النقص جاء الأمر الإيجابي: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، ثم الكلمة الأوسع: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾. الذي أمامك في البيع إنسانٌ له حاجةٌ وثقةٌ ومالٌ تعِب في تحصيله. ربما لا تذكره بعد انصرافه، لكنه سيرجع إلى بيته بالشيء الذي سلمتَه له. أن يأخذ ما رضي بدفع ثمنه على حقيقته حقٌّ له؛ وإحسانك في كيلك ووصفك وأداء ما التزمتَ به هو من صدق العبودية التي دعا إليها شعيب. وأحكام كل عقدٍ تضبط ما يجب فيه من المواصفات والوفاء، فلا يُترك تحديد الحق للانطباع وحده.

ويدعوه شعيب إلى ما هو أحب وأبقى من الربح المشوب بالظلم: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86]. رجّح الطبري أنها بقية الحلال الذي يُبقيه الله لهم بعد إيفاء الحقوق، لا مطلقَ ما بقي في أيديهم. يخرج صاحب المهنة من يومه وربحُه أقلُّ عددًا، لكنه يعلم أن ما أبقاه الله له من الحلال خيرٌ مما قد يناله بالبخس.

ثم قال شعيب: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. أدّى ما أُمر به من البلاغ، ولم يُجعل قائمًا على كل ميزانٍ يراقب أصحابه. فإذا غابت عينُ المراقب عن ورشةٍ أو عملٍ أو عقد، لم يغب عن الله أمرُ العبد. إن صدق العبادة يظهر حين يملك الإنسان أن ينتفع من مخالفةٍ خفية، ثم يتركها طاعةً لربه، لا خوفًا من أن يراه الناس.

لكن قوم شعيب رأوا أن هذا التدخل في تجارتهم أمرٌ لا يُقبل، فقالوا: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87].

في اعتراضهم معنى مخيفٌ قريبٌ من النفس: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾. لقد وصل أمر الله الذي يدعوهم إليه شعيب إلى تجارتهم، فاستثقلوه: أتريد أن نحكم في أموالنا بغير ما نشاء؟ ومن هنا يصبح السؤال قريبًا من صاحب كل مهنة: هل أقبل أن يكون لله أمرٌ عليَّ حين يتحدد السعر، وتُذكر مواصفات السلعة، وأقرر كم أستحق من مقابل؟ أو أريد العبادة بعيدةً عن القرار الذي قد يُنقص ربحي؟

ويأتي جواب شعيب عليه السلام أجمل من أن يُختزل في النهي عن الغش: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

قال شعيب: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. وفسر الطبري ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ بالحلال الطيب. لقد سمّى رزقه رزقًا من الله، ثم أعلن: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾. وتثقل هذه الكلمة على النفس حين تُطالب بالامتثال لها. لا يكتفي صاحب الحق بأن ينصح الناس بألا يغشوا؛ عليه أن يكون أول من يقف عند الحد حين يعرض له ربحٌ لا يحل. ومع ذلك لم يجعل شعيب الغاية مجرد كشف الخطأ، بل قال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾؛ يريد للناس حياةً تستقيم بعبادة الله والعدل بينهم.

وفي ختام جوابه تتسع الآية حتى تدخل كل باب رزق: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. قد يملك الإنسان رأس مالٍ وخبرةً ومهارةً في التفاوض، ثم لا يملك أن يوفق نفسه إلى الحق كلما غلبته الرغبة. لذلك كان شرف السعي أن يقوم على التوكل والإنابة: يعمل، ويصحح خطأه، ويرد ما لا يحل، ويعلم أن الذي أعانه على الكسب هو الذي يعينه على النزاهة فيه.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾ — أبواب الرزق التي أذن الله بها

وبعد أن أرانا القرآن كيف دخلت عبودية الله السوق في قصة شعيب، يفتح لنا باب التجارة من وجهٍ آخر، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29].

في قوله ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ إذنٌ كريمٌ بالسعي والتبادل والكسب. تستطيع أن تعرض ما أحسنت صنعه، وأن تطلب له ثمنًا ترتضيه أنت ويرضاه الآخر؛ فالربح المشروع مما أباحه الله لعباده. لكن الرضا لا يجعل المحرَّم مباحًا، ولا يستقيم بالتمويه في شروط العقد أو حقيقة ما يلتزم به أحد الطرفين؛ فالتجارة المأذون فيها قائمةٌ على حقٍّ مفهومٍ ورضًا صحيحٍ في حدود الشريعة. وبمثل هذا البيان تنمو الثقة، ويجد الناس في التعامل بابًا للانتفاع لا بابًا للتغرير.

وخُتم هذا الأمر بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. ليس منعُ أكل المال بالباطل تضييقًا على من يعمل ويتجر، بل رحمةٌ تحفظ لكل إنسان ثمرةَ سعيه، وتؤدب القوي حين يقدر على أخذ ما ليس له. ومن عرف رحمة الله به أحبَّ أن تظهر هذه الرحمة في معاملته، فلا يجعل قدرة الناس على التفاوض أو جهلهم بالتفاصيل سبيلًا إلى كسبٍ لا يرضاه الله.

وفي السنة حياةٌ لهذا المعنى من جهةٍ أخرى. لما آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما، عرض سعد على أخيه المهاجر من ماله عرضًا سخيًّا، فأجابه عبد الرحمن داعيًا له بالبركة في أهله وماله، ثم قال: «هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟» فقيل له: سوق قينقاع. فغدا إليها، وجاء بشيءٍ من الأقط والسمن، ثم واصل الغدو إلى السوق (رواه البخاري، 2048).

لا يقلِّل الخبر من فضل سعدٍ ولا من فضيلة قبول العون المباح، لكنه يريك رجلًا أراد أن يفتح لنفسه باب كفايةٍ بعمله. خرج في يومه الأول، ثم عاد، ثم عاود الخروج. وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه هو الذي نُقل عنه في طوافه دعاءُ «اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي»؛ فالسعي في السوق، والاستعانة بالله على سلامة القلب، وجهان لا يتنافيان من حياة المؤمن. لم تكن خطواته بعيدةً عن التوكل؛ فالذي يسعى إلى الحلال يسأل ربَّه أن يعينه، ثم يمضي في سببٍ أباحه.

الكسب بالأجرة: القويُّ الأمين

ليس كلُّ من يسأل: من أين اكتسبتَ؟ يفتح متجرًا أو يعقد بيعًا. قد يكون رزقه في راتبٍ يأخذه لقاء عملٍ التزم أداءه، أو في أجرٍ يتقاضاه على صناعةٍ أو خدمةٍ أو ساعةِ خبرة. وقد يكون الاختبار خفيًّا:

تُرفع أمامه نتيجةُ عملٍ لم يكتمل، ويستطيع أن يسجله منجزًا، أو يُطلب منه وقتٌ في مهمةٍ تعاقد عليها، فيُدخل في أجرها عملًا لم يؤده. هنا لا تُختبر مهارةُ الوصول إلى الراتب فحسب، بل صدقُ الطريق الذي استحقه به.

وفي سورة القصص، بعدما سقى موسى عليه السلام للمرأتين ثم دُعي إلى أبيهما، قالت إحداهما: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]. كلمتان جمعتا صلاح العمل: قوةٌ تؤهّل صاحبها لأدائه، وأمانةٌ تمنعه أن يستعمل تلك القدرة في الخيانة. ليست الكفاية أن يكون الموظف حسنَ النية مع عجزٍ يتهاون في إصلاحه، ولا أن يكون بارعًا بلا أمانة؛ فالقوة هنا تُقرأ بحسب العمل وما يحتاجه من قدرةٍ وخبرة، والأمانة تحفظ تلك القدرة لصاحب الحق.

ثم جاء عرضُ العمل في سياق القصة: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: 27]. لم يأتِ ذكر الأجرة والعمل سنينَ طويلةً في هامش القصة؛ بل صار العملُ المعلومُ المدة جزءًا من عهدٍ واضح. وليس في أن يعمل موسى عليه السلام أجيرًا ما ينتقص مقامه؛ فالعمل الحلال شرفٌ في موضعه، ويُقاس صدقُ الإنسان بما يؤديه من عهدٍ لا بما يصنع لنفسه من صورة.

وفي السنة ما يزيد هذا المعنى قربًا؛ قال رسول الله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ» (رواه البخاري، 2262). رسولُ الله ﷺ يخبر أصحابه بعملٍ كان يعمله لأهل مكة، فلا يحبس الحرجُ مسلمًا عن رزقٍ كريمٍ يطلبه بجهده. لقد كان في سِيَر الأنبياء من كرامة العمل ما يُبطل احتقار المهن، ومن الوفاء ما يذكّر المرء أن عظمة القصد لا تعفي من إتقان الفعل.

فإذا جلستَ إلى مكتبك أو دخلتَ موقعَ عملك، لم تكن العبادة في أن تردّد ألفاظًا صالحةً وتترك المهمة التي استُؤمنت عليها؛ بل قد تكون في تقريرٍ تُثبت فيه ما تحقق دون زيادة، وفي وقتٍ تفي فيه بما يقتضيه اتفاقك الصحيح، وفي نتيجةٍ لا تنسبها إلى نفسك ولم تنجزها. تُراعي ما لك من حقوقٍ مشروعةٍ في الراحة والأجر، وتراعي ما التزمته من عملٍ كذلك. والذي يعرف قوةَ نفسه يستطيع أن ينمّيها تعلمًا وإتقانًا، والذي يحب الله يرجو أن تكون تلك القوة أمانةً لا وسيلةً إلى مالٍ لم يستحقه.

وتتعدد ميادين هذا الرزق: صناعةٌ تتقنها اليد، وبرنامجٌ يتقنه صاحبه، ومزرعةٌ ينتظر أهلها عرقَ العامل، ووظيفةٌ تُقضى بها مصالحُ الناس. لا تحتقر حرفتك إذا كانت حلالًا، ولا ترفع قدرَها بكثرة دخلها وحده؛

إنما اشكر الله أن أتاح لك أن تطلب كفايتك بنفعٍ مشروع، وأن تنام وقد وفيتَ من عهدك بما استطعت على وجهه.

ومن السنة كلمةٌ تجعل النيّة حاضرةً في ساعات العمل، لا في لحظة العطاء بعده فحسب؛ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» (رواه البخاري، 1). قد يخرج اثنان إلى عملٍ مباحٍ من نوعٍ واحد، ويكون لأحدهما قصدٌ صالحٌ يعظُم به أجره: يطلب الكفاية من الحلال، ويعفّ نفسه ومن يعول، وينفع الناس بما أتقن، ويستعين بماله على طاعة الله.

فلا يحتاج أن يهجر حرفته ليتعبد؛ إنما يحتاج أن تصدق نيته ويستقيم عمله. والنية الصالحة لا تجعل الغش أو الربا حلالًا؛ لكنها تجعل السعي المباح قريبًا من القلب المؤمن الذي يريد به وجه ربه، ويظل يستحضر هذا القصد كلما تجددت أسباب الكسب.

وفي ختام سورة الجمعة تُرى التجارة حين تزاحم عبادةً واجبة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: 11]. تفرّق بعض الناس حين ظهرت لهم تجارةٌ، وتركوا النبي ﷺ قائمًا يخطب؛ فجاء الجواب من الله بما يعيد وزن الأمر: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾.

لم يمنعهم القرآن من طلب رزقٍ أباحه، ولكنه لم يسمح لرغبة الربح أن تُقدَّم على حقٍّ واجب. ومن أرقِّ ما في الخاتمة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. فذلك الرب الذي تركتَ لأمره فرصةً كانت قريبةً هو الذي بيده أصلُ رزقك. وإذا أحببتَ الله أكثر، لم يعد فوتُ صفقةٍ حلالٍ لأجل واجبٍ شرعيٍّ هوانًا عندك؛ بل صار علامةَ قلبٍ عرف مَن هو أولى بالطاعة.

حين يصير حقّ الآخر ميزانًا للكسب

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ — ميزانٌ واحد للأخذ والعطاء

وفي سورة المطففين يفتح القرآن ميزانًا آخر يكشف خللًا دقيقًا في معاملة الناس، حين يتغير المقياس باختلاف مَن يأخذ ومَن يعطي. قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 1–3].

تكشف الصورة خلل الميزان: حين يأخذ هؤلاء من الناس يريدون المكيال وافيًا، وحين يعطونهم ينقصون. لم يتركوا الميزان في موضعٍ واحد، بل نقلوه حيث تميل بهم المنفعة: حقُّهم كاملٌ في جهة الأخذ، وحقُّ الآخر قابلٌ للتقليل في جهة العطاء. وقد بيّن الطبري أن التطفيف هو نقص حق صاحب الحق عما له من الوفاء، وأن أصله من الشيء الطفيف، أي القليل. وقد يسهل على النفس أن تُهوّن القليل لأنها لا ترى أثره الكبير في تجارتها؛ لكن حق الآخر لا يصغر لأن ما أُخذ منه يسير.

في أصل الآيات بيعُ كيلٍ ووزنٍ يُنقص صاحبه حقَّ من يشتري. ولكن صورتها تضع أمام صاحب كل عملٍ سؤالًا دقيقًا: أتطلب حقَّك كاملًا إذا كنت آخذًا، ثم ترى حقَّ الآخر قابلًا للتخفيف إذا أصبحت مؤديًا؟ قد يحرص المستأجر على استيفاء كل شرطٍ لصالحه، ثم يتساهل في شرطٍ التزمه لغيره. ولا تُسقط أحكام الكيل الخاصة على كل عقدٍ كيفما اتفق؛ وإنما يوقظ القرآن ضميرًا يتبع العدلَ حيث انتقلت المصلحة، فلا يتغير المقياس بتغير الجهة.

ثم تفجؤنا السورة بسؤالٍ ينقل السوق إلى يومٍ أشد من يومه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 4-6].

هنا يبلغ المشهد ذروته في السؤال القرآني: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾. ليس الذي يحرس المكيالَ عينُ المشتري وحدها؛ فثمة يومٌ يقوم فيه الناس لرب العالمين. قد تنتهي معاملةٌ ولم يكتشف صاحبها النقص، لكن خبرها لم يَغِب عن الله. وما أشرف أن يتذكره العبد في لحظةٍ يستطيع فيها أن يأخذ شيئًا يسيرًا بغير حق، فيختار الوفاء؛ لأنه يحب أن يلقى ربَّه وقد كفَّ يده عن ظلمٍ كان سهلًا عليه.

وللسنة مشهدٌ يخرج هذا المعنى من الكيل الذي يراه الناس إلى عيبٍ قد يخفى في باطن السلعة. مرَّ رسول الله ﷺ على صُبرة طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللًا. قال لصاحب الطعام: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» فقال: أصابته السماء يا رسول الله؛ أي أصابه المطر. فقال النبي ﷺ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي» (رواه مسلم، 102).

أدخل رسول الله ﷺ يدَه في صُبرة الطعام، فوجد بللًا لم يظهر في أعلاها. لم يطلب من صاحبها أن يترك البيع؛ علّمه أن يُظهر ما يحتاج الناس أن يروه: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟». قد يكون في سلعتك نقصٌ لا يمنع بيعها إذا بُيّن لمن يشتري؛ فالمشكلة حين تجعل جهلَ الآخر بعيبٍ مؤثرٍ طريقًا إلى كسبك. وما أسهل أن تكون كل كلمةٍ في الإعلان صحيحةً حرفيًا، ويبقى الوصفُ بمجمله مضللًا. الورع أن تقصد إلى البيان الذي يفهم به الآخر ما يشتريه.

ثم جاء الوعيد النبوي: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي». كلمةٌ تهز من يحب رسول الله ﷺ ويرجو اتباع طريقته، أيكون مكسبٌ محدودٌ أغلى في نفسه من صدق الاتباع؟ والوعيد الشديد في الغش لا يُتخذ حكمًا بتكفير غاشٍّ معيَّن، ولكن لا يُهوَّن ما عظّمه النبي ﷺ. يستطيع المرء أن يفوّت ربحًا كان يمكن تحصيله بالكتمان، فيفرح بأن الله وفّقه إلى الصدق، فرحًا لا تشتريه خزائن الدنيا.

ويجيء حديثٌ آخر يفتح بعد التحذير بابًا من الرجاء والفرح: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا – أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا – فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» (رواه البخاري، 2079، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه).

جمع النبي ﷺ بين الصدق والبيان، وربط بهما البركة: «فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا». وفي ذلك فرحٌ للمتعامل الأمين؛ فقد جعل رسول الله ﷺ للصدق باب بركةٍ يرجوه، وللكتمان والكذب محقًا يحذره، ولو بدا في السوق أن الربح أكبر بالكتمان.

ثم تتسع السنة من صدق البيع إلى رحمته. قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى» (رواه البخاري، 2076، من حديث جابر رضي الله عنه). ليست السماحة إضاعةً للحق، ولا تعطيلًا لمطالبةٍ مشروعة، بل سعةُ نفسٍ تُحسن بها البيع والشراء وطلبَ الحق. لقد كان يمكن أن يجعل المهنة ميدانَ خصومةٍ دائمة، فجعل له النبي ﷺ بابًا إلى رحمة الله في لطف التعامل. ويرجو محبُّ الله رحمته حين يعامل الناس بسماحةٍ وعدل!

المال الذي لا يصير لك ولو دخل حسابك

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188].

في قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ صورةُ إنسانٍ يعرف أن له في الإجراءات سبيلًا إلى مال غيره، فيستعمل الخصومة والبيّنة الظاهرة لانتزاع ما لا يستحق. وقد يستطيع أن يُحسن ترتيب كلامه حتى يبدو محقًا، بينما يعلم في سره أن الحق ليس له. ما أخطر أن يستريح المرء إلى حُسن حجته، وينسى عدل الله الذي لا يتغير لأن أحد الخصمين كان أبلغ من الآخر.

ولهذا جاءت كلمة النبي ﷺ في شأن الخصومة شديدة الأثر، قال لأصحابه: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا» (رواه البخاري، 2680، من حديث أم سلمة رضي الله عنها).

جاء هذا التحذير من رسول الله ﷺ وهو يقضي بين الناس بحسب ما سمع من حججهم. فإذا قضى لقائلٍ بشيءٍ من حق أخيه على خلاف الواقع، لم يتحول المال إلى حلالٍ له لمجرد صدور الحكم؛ بل سماه النبي ﷺ «قِطْعَةً مِنَ النَّارِ». أيُّ ربحٍ يستطيع أن يستحق هذه التسمية؟ في العمل اليوم قد تكون الحجة عقدًا صيغ بعبارةٍ توهم غير حقيقتها أو وثيقةً حُجب عنها بيانٌ مؤثر؛ فالواجب أن تُطلب الحقوق بالحق، لا أن تكون المهارة في الإثبات وسيلةً لأخذ ما تعلم أنه حق غيرك.

وتتجاوز طرقُ الباطل الغشَّ والكذب. فالقرآن نفسه يفتح للناس التجارة عن تراض، ثم يحدُّ بعض طرق زيادة المال ولو رضي بها المتعاملون. قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]. وحرَّم الميسر في قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90]. وثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «نَهَى عَنْ بَيْعِ الْحَصَاةِ وَعَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ» (رواه مسلم، 1513).

ومع تحريم الربا والميسر وبيع الغرر تبقى مسائل كثيرة تتفاوت صورُها وحُكمُها. لا يكفي اسمُ المنتج التجاري وحده لمعرفة حقيقته، ولا يحوّل تراضي الطرفين ما حرمه الله إلى مباح؛ كما لا يكون كل احتمال ربحٍ أو خسارةٍ في تجارةٍ مشروعةٍ غررًا محرمًا. ومن الورع هنا أن تتعلم حكم المعاملة قبل أن يستولي عليك شوق عائدها، وأن تسأل أهل العلم الثقات عمّا أشكل، ثم تعمل بعلمٍ مطمئن. فالورع لا يصنع أحكامًا من كل خوفٍ، لكنه لا يجعل الرغبة في الربح حَكَمًا على حدود الله.

قد يقول لك من يريد إقناعك بربحٍ مشكوك الطريق: «الجميع يفعل ذلك»، أو «النظام يسمح به». تلك معلوماتٌ عن الناس والأنظمة، لا دليلٌ في نفسها على رضا الله عن العقد. إذا تبين لك أن الطريق لا يحل، فقد يكون تركه أثقل على النفس من إتمامه، وهناك تذوق شيئًا من صدق العبودية: تترك حرامًا لا لأنك عجزتَ عن تحصيله، بل لأنك أحببتَ رضا الله أكثر.

«الحلال بيّن» — ورعٌ يحرُس القلب ولا يعطِّل الحياة

قد يخفى على صاحب المال حكمُ ما يُعرض عليه في السوق. قد يأتيه عقدٌ لا يفهم بعض شروطه، أو استثمارٌ لا يتبين ما الذي يولد عائده، أو وعدٌ بخدمة تتوقف على أمورٍ غير محددة. والورع أن يتبين حكم ما يدخل فيه قبل أن يُقدم عليه أو يحكم عليه؛ فإذا تبيَّن الحلال أخذه بقلبٍ مطمئن، وإذا تبيّن المحرَّم تركه، وفي الحالين يريد رضوان الله.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ» (رواه مسلم، 1599، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه).

في الحديث أمورٌ بيّنةٌ الحِلّ، وأمورٌ بيّنةٌ الحرمة، وبينهما ما يشتبه على كثيرٍ من الناس. لا تصبح التجارة محرمةً لأنها جديدة، ولا يغني عن طلب العلم أن يكون التعامل منتشرًا. فصاحب الورع يسأل حين يحتاج، ويتثبت حتى ينكشف له الحكم، ثم يمضي فيما أبيح من غير أن يسترسل في شكوكٍ لا دليل عليها. بهذا يجتمع في نفسه تعظيم الحدود وسعةُ الحياة التي أباحها الله.

وضرب النبي ﷺ مثل راعٍ يرعى حول حمىً يوشك أن يرتع فيه، ثم قال: «أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ». ليس الورع خوفًا من كل أرضٍ مباحة؛ بل أن تعرف الحمى فلا تقترب منه استهانةً بالحدود. والذي يُقارب أمرًا يعلم أن فيه شبهةً معتبرة ويظل يقول: لعلني أسلم؛ يعرّض دينه لما لا يحب. ما أكرم أن يعصم الله قلبَك من أن يعتاد المساومة على حدوده، فتجد في الوقوف عندها راحةً من نزاعٍ كان يمكن أن يفسد عليك دينك!

وفي آخر الحديث جاءت الكلمة التي تُفصح عن سر المسألة كلها: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (رواه مسلم، 1599).

وأعجب ما في تمام الحديث أنه بعد الحلال والحرام والشبهات انتهى إلى القلب: «أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». قد ينتبه الناس إلى صحة العقد وشروطه، ولكن صلاحَ القلب هو الذي يمنح صاحبه الرغبة في الصدق حين يقدر على غيره. من أحب الله أراد أن يسلم له قلبه، وأن تظهر هذه السلامة في يدٍ لا تخون، ولسانٍ لا يكذب، وعينٍ لا تتطلع إلى ما حرم. وهكذا تصير معرفة الأحكام حمايةً لمحبة الله، ويصير الورع ثمرةً لها.

يأتيك رزقٌ من وجهٍ واضح فتأخذه شاكرًا من غير تردد، ويحتاج وجهٌ آخر إلى استفسارٍ فتسأل حتى تعرف، وتنكشف لك معاملةٌ محرمة فتدعها ولو كان عائدها مغريًا. قد تختلف هذه القرارات في ظاهرها، لكن يجمعها قلبٌ واحدٌ يريد أن يطيع ربَّه في الأخذ والترك معًا.

«إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ» — المال الذي يصحب دعاءك

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا».

ثم ذكر أن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، وتلا قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172] (رواه مسلم، 1015).

في آية المؤمنون اقترن الأمران: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ و﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾. لم يفصل الله مطعم رسله عن أعمالهم، ولم يُرِد للمؤمنين أن يستطيبوا ما لم يبح لهم. إذا سمعتَ الآية وأنت تُدخل طعامًا إلى بيتك من كسبك، ازداد معنى الحلال عندك قربًا؛ فهذا الطعام تقوى به أجساد من تحب، وتتمنى أن يقوى به قلبك على ذكر الله وطاعته. وأحبُّ مالٍ إلى المؤمن ما استطاع أن يحمد الله على طريقه ومصرفه.

ثم ذكر رسول الله ﷺ رجلًا مسافرًا «يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ»، يمد يديه إلى السماء، يقول: «يَا رَبِّ يَا رَبِّ»، ثم وصف حاله بقوله: «وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ»، وختم بالسؤال: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟» (رواه مسلم، 1015).

لم يصف النبي ﷺ الرجلَ بأنه غافلٌ عن ربه؛ ففي هيئته سفرٌ ومشقة، وفي دعائه يدان ممدودتان إلى السماء ولسانٌ يكرر: «يَا رَبِّ يَا رَبِّ». ثم ذكر المطعم والمشرب والملبس والغذاء المحرَّم. كأن الحديث يسأل طالبَ الرزق عمَّا يصحب دعاءه من حياته اليومية: من أين جاء الطعام الذي يقيم به جسده؟ فدعاؤه مرتبطٌ بحياةٍ دخلتها المعصية من باب الكسب، ثم وقف صاحبها يرجو الإجابة.

أمام هذا الخبر قد تحضر في النفس صفقةٌ يعلم صاحبها أن بعض مالها حرام، أو عملٌ أعطى فيه غيره أقل مما وجب له، ثم يتمنى أن يعوض ذلك بعملٍ صالحٍ ظاهر. فيصير سؤال القلب: أأطلب بركة الله لمالٍ أعلم أني أخذته بما لا يرضيه؟ إن من أحب الله وأحب دعاءه إليه أحب أن يصون الأسباب التي يأكل منها ويفيد بها من يعول؛ لأنه لا يريد للحرام أن يكون مألوفًا في بيته.

هذا تحذيرٌ من الحرام الذي يعلم صاحبه حرمته، لا بابٌ للحكم على دعاء شخصٍ بعينه أنه رُدَّ قطعًا؛ فعلم الإجابة عند الله، وأبواب التوبة مفتوحة. لكن لا يُبرد هذا الوعيد: حين يقول النبي ﷺ «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟» فإنه يجعل تحرّي الحلال من شأن عبادة الله نفسها. فما أغلى أن تترك طريقًا لا يحل وأنت ترجو أن تُقبل عند الله بقلبٍ وطعامٍ طيبين.

وإن كان في مالك اليوم شيءٌ علمتَ أنه أُخذ بغير حق، فليكن الندم بدايةَ توبةٍ تُصلح بها ما تستطيع. تترك الطريق المحرَّم، وتردُّ ما ثبت من حقوق الناس إلى أهله، وتسأل عما يلتبس عليك من أحكام المعالجة دون أن تتخذ الجهل حجةً للبقاء في الخطأ. قد ينقص ما تملكه عندما تُصلح ما مضى، ولكن بابًا من السكينة يُفتح حين تحب رضا الله أكثر من بقاء المال المحرَّم، وترجو رحمته التي وسعت عبدًا تاب وأناب.

قد تكون ساعةُ صدقك في عملٍ واحدٍ أغلى عندك مما كسبته فيه: أتممتَ تقريرًا كما ينبغي، أو أعلنتَ أن جزءًا من المهمة لم يكتمل بعد، أو أخرجتَ من مال المشروع مبلغًا لم تستحقه. وربما لم يعلم أحدٌ أنك كنت قادرًا على غير ذلك. ثم تعود بطعامٍ اشتريتَه من حلال، فتراه على مائدتك من وجهٍ آخر: رزقًا أعانك الله على تحصيله دون أن تعصيه في طريقه. وهذا من فرح العبودية الذي يعرفه القلب ولو لم يره الناس.

حين يصل المال إلى يدك من بابٍ مشروع، يبدأ سؤالٌ آخر: هل صارت كلُّ منافعه لك وحدك؟ قد يتعلق بهذا المال حقُّ ولدٍ أو والدٍ أو زوجٍ أو وارثٍ أو دائنٍ أو أجير. وهناك يتسع امتحان الأمانة: بعد أن سألتَ كيف جاءك المال، تسأل لِمَن فيه حقٌّ لا يجوز لك حبسه.

بأي حقٍّ يُمسكه؟

حقوقٌ لا يُسقطها صمتُ أصحابها

روى البخاري خبرَ ثلاثة رجالٍ آواهم المبيت إلى غارٍ، فانطبقت عليهم صخرةٌ فسدّت الباب، فتوسل كلٌّ منهم إلى الله بعملٍ صالحٍ أخلص فيه. قال أحدهم إنه استأجر أُجراء فأعطاهم أجورهم إلا رجلًا ترك أجره وذهب، فثمّره له صاحب العمل حتى صار منه مالٌ كثير.

وبعد زمنٍ عاد الأجير يطلب حقَّه، فقال له الرجل: كل ما ترى من مالٍ وإبلٍ وبقرٍ وغنمٍ ورقيقٍ من أجرك. وظن الأجير أنه يمزح، فأكد له أنه صادق، فأخذه كله ولم يُبقِ منه شيئًا. ودعا الرجل ربه بما فعل ابتغاء وجهه، فانفرجت الصخرة (رواه البخاري، 2272، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما).

لم يتوسّل الرجل إلى الله بصدقةٍ زائدةٍ أخرجها من ملكه، بل بوفاء أمانةِ أجيرٍ غاب عنه. عاد صاحب الحق، فأُعطي المال الذي صار إليه أجره في تلك الواقعة. وفي إخلاص الرجل وتقديم حق الغائب على هوى نفسه ما يبعث على محبة أداء الأمانة؛ أما جواز التصرف في أجور الناس دون إذنهم فليس حكمًا يُستخرج من القصة بإطلاق.

أمانةٌ حفظها رجلٌ لغائبٍ لا يعلم ما آل إليه ماله، فرجا أن تكون عند الله عملًا يفتح له باب النجاة. وفي حقوق الضعفاء والأهل والورثة امتحاناتٌ مثلها: يملك الإنسان القدرة على التصرف، ويبقى المال حقًّا لصاحبه.

حين يكون الحق لضعيفٍ لا يملك المطالبة

قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: 2].

تبدأ الآية بفعلٍ صريح: ﴿وَآتُوا﴾. ليس المال الذي يُدار في حياة اليتيم ملكًا لمن يديره، وإن كان هو الذي يحفظ مفاتيحه ويعرف دفاتره. سماه الله من أول الأمر: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾. بهذا اللفظ تُمنع النفس من أن تخلط طول الأمانة بطول الملك، أو تُقنع نفسها أن ضعف صاحب الحق يجعل التصرف في ماله مباحًا.

وقد يعتني إنسانٌ بيتيمٍ أعوامًا، ويُنفق من جهده ووقته ما يكرمه الله عليه، ثم يُفتن بمالٍ لهذا اليتيم هو الذي يتولى حفظه. وربما بدا أخذ شيءٍ منه يسيرًا لا يلفت النظر، أو سوَّلت له نفسه أن ما بذله من جهدٍ

يسوِّغ له ما لم يأذن به الشرع. فماذا يفعل بقلبه قولُ الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾؟ يردُّ إلى الضعيف ملكَه ولو غاب عن مجلس القرار، ويضع فوق يد القوي أمرًا من ربه لا يغيب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾، وقد ذكر المفسرون فيه النهي عن أخذ الجيد من مال اليتيم وإعطائه الرديء بدلًا منه، ويدخل فيه التحذير من استبدال الحرام بالحلال. والأمانة حفظُ نوع المال وقيمته ومصلحة صاحبه، وألّا يجعل الأمين لنفسه معاملةً أيسر مما يرضاه لصاحب الحق لو حضر ودافع عن نفسه.

ويستمر البيان في الآيات نفسها: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 5]. وفي هذه الآية تلتقي قيمة المال بحفظ حق الضعيف: المال قوامٌ لمعيشة صاحبه، وحفظه ينبغي أن يجتمع مع رعايته وإكرامه في القول. فإذا كان من تتولى أمره لا يحسن التصرف، لم يُبح لك ذلك أن تُهينه أو تجعله محتاجًا إلى استعطافك ليحصل على ما شرعه الله له.

وتأتي الآية التالية فتحكم لحظةَ تسليم المال إلى أهله: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6]. فليس البلوغ وحده هو الذي ذُكر في شرط الدفع، بل أُضيف إليه ظهور الرشد.

ثم نهى الله الأولياء عن أكله إسرافًا وبدارًا أن يكبروا، وبيَّن أن الغني يستعفف، وأن الفقير يأكل بالمعروف، وأمر بالإشهاد عند دفع أموالهم [النساء: 6]. هذه حدودٌ محكمة؛ فلا يحبس وليٌّ مالَ راشدٍ بدعوى الخوف عليه ليستبقي نفوذه، ولا يسلّمه إلى من لم يظهر رشده حتى يضيع، ولا يعدّ الإشراف على المال بابًا مفتوحًا ليقتطع ما شاء. لكل حالٍ حقُّه الذي بيَّنه الله.

ومن أرقِّ ما تربيه الآيات أن يفرح الأمين حين يحين يومُ تسليم المال إلى صاحبه. قد اعتاد إدارة شأن اليتيم والسؤالَ عن كل صغيرة وكبيرة، لكن الله الذي ائتمنه يحب منه أن يؤدي الأمانة إلى تمامها. فيهيئ الوليُّ صاحبَ المال للرشد، ثم يدفع إليه ملكه، ويستريح قلبه إلى أنه لم يحبس لنفسه ما لا يملكه. تلك فرحة طاعة لا تظهر في مقدار المال الذي بقي في يد الولي، ولكنها تعمر قلبه بحمد الله الذي أعانه على الوفاء.

وقد يعرف صاحبُ الأمانة معنى هذه الفرحة قبل أن يفرغ من عمله؛ فيجعل غايته منذ البداية أن يستغني الضعيفُ عنه يومًا. ويحتسب ما بذله من وقتٍ وعناية، ويسأل الله ألا يجعل طول ولايته سببًا لتعلُّق نفسه بسلطانٍ ينتهي حين يحين حق صاحبه.

ويشتد الوعيد بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]. ما أشدَّ أن يصف الله المال الذي يتلذذ به الظالم بهذه الصورة! من ينظر إلى المبلغ قد يرى طعامًا أو سيارةً أو ثوبًا، والقرآن يكشف حقيقةَ أخذه بغير حق. وذكر الوعيد ليس دعوةً إلى اليأس لمن تاب وردَّ الحقوق، بل حمايةٌ لقلب من كادت سهولة الاستيلاء أن تُسقط من عينه قدر الجريمة.

إذا مات صاحب المال بقيت حقوقُ الأحياء

ذمَّ القرآن في سورة الفجر ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: 19]، ولم يترك ورثةَ الميت لعُرف يقدّم القويَّ ويؤخّر الضعيف. وفي سورة النساء بيانٌ يحسم أصل الحقّ قبل قيام الخصومة: الأنصبة حقوقٌ فرضها الله، يؤديها مَن يتولى القسمة بأمانةٍ وعدل، ولو كان المال قليلًا، أو كان الأيسر لبعض الناس أن تبقى التركة تحت يدٍ واحدة.

قال الله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: 7].

بدأت الآية بالرجال والنساء، ثم ردّت احتمالًا شائعًا عند النفوس: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾. قد يكون المال قليلًا فيُقال: لا يستحق الخلاف، أو كبيرًا فتشتد الرغبة في إبقائه تحت يد الأقوى. وفي الحالتين ختم الله قوله: ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾. إن الفرض لا يتغير لأن أخًا تكلم باسم العائلة، أو لأن أختًا أحبت بقاء المودة فلم تطالب بحقها.

ثم فصل الله أنصبة الورثة في سورة النساء، وأعاد بعد بعض أحكامها قوله: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 11]. ولهذه الخاتمة أثرٌ ينبغي ألا يضيع حين تتنازع الأسرة: الذي بيَّن الحقوق هو العليم الحكيم.

فلا تُعامَل قسمةُ التركة كأنها فضلٌ يمنحه صاحب القرار حين يرضى، ولا يملك فردٌ أن يُسقط حصةَ غيره لمجرد أن بقاء العقار باسم واحدٍ أيسر له. وتتعلق بالتركة قبل توزيعها حقوقٌ مثل الديون والوصايا المشروعة في حدودها، وتفاصيل الأنصبة والاستحقاق ترجع إلى العلم والجهات المختصة؛ أما أصل الدلالة هنا فظاهر: حقُّ الوارث لا يُخلق يوم يطالب، بل ثبت له بما شرعه الله.

ولا ينتهي الامتحان بمعرفة الأنصبة: فقد تُستكمل الأوراق، ويُعرف لكل وارث مقدارُ حقه، ثم يتأخر تمكينُه منه مع القدرة عليه، لأن من يتولى التركة يستريح إلى بقاء المال تحت يده. هنا تظهر محبةُ أمر الله في المبادرة إلى إيصال المستحق إلى صاحبه، لا الاكتفاء بحفظ اسمه في كشفٍ لا ينفذ. وإذا احتاج الأمر إلى إجراءاتٍ مشروعةٍ أو فصلٍ في منازعة، لم يكن ذلك إذنًا في استبقاء ما ثبت واستحق أداؤه.

ولو كان لبعض الورثة أن يتنازل بعد ثبوت حقه وتملكه، فذلك شأنٌ آخر له شروطه، ولا يكون صحيحًا بمجرد ضغطٍ عاطفي أو توقيعٍ انتُزع في جو خوفٍ وحياءٍ وجهل. لا يصح أن يتحول اسم «التراضي» إلى حيلة يُستبقى بها مال من لم يرضَ رضا صحيحًا. وقد تكون الأخت في حاجةٍ إلى نصيبها ولا تُظهر ذلك لأهلها. والذي يكره أن يرى ضعيفًا يسأل حقه فيُجحد، يحب أن يقدّم إليه حقه قبل السؤال.

وهكذا يتبدل معنى الوفاء للوالد الميت: ليس فقط أن يُذكر بخيرٍ أو يُتصدق عنه من مالٍ مُلك على وجه صحيح، بل أن تُوفَّى الحقوق المتعلقة بتركته، وألا يُجعل موته بابًا لظلم بعض أولاده أو أقاربه. فبيتٌ يذكر الله في دعائه ويَعدل في قسمة ميراثه يجمع الرحمة بأهله مع الانقياد لحكم ربه؛ وقد يكون ذلك أعظم ما يحفظ المودة من خصومةٍ تتوارثها الأجيال.

الأجرة التي صارت حقًا في ذمتك

حين يستأجر الإنسان غيره على عملٍ مباح، يكون قادرًا على أن يحدد المطلوب ويتابع الإنجاز ويطالب بما اتُّفق عليه. ولكن ماذا عن المال الذي يستحقه العامل بعد أن يؤدي عمله؟ قد ينتهي يومُه، ويعود إلى بيتٍ ينتظر نفقةً، بينما يرى صاحبُ العمل أن الأجر مبلغٌ يمكن أن يُقدَّم أو يؤخَّر بحسب راحته. وهل يتغير حق الأجير لأنه أضعف منه قدرةً على الضغط والمطالبة؟

فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربِّه عز وجل قال:

«ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

ومنهم: «وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ» (رواه البخاري، 2227).

أتمَّ العامل ما اتُّفق عليه، ثم قُبضت منه ثمرةُ جهده وحُبس عنه عوضه. من الذي صار خصمًا لمن استوفى العمل ولم يؤدِّ الأجرة؟ ربُّ العالمين. وتستيقظ مراقبة الله في قلب صاحب العمل حين يسمع هذا الوعيد؛ فالذي يعرف خوف العامل وحاجته هو الذي يسمع أيضًا دعوى صاحب المال وأعذاره.

وربما احتاج صاحب العمل إلى إثبات مقدار الإنجاز أو كانت هناك منازعةٌ حقيقية فيما استُحق، فلذلك أحكامه وطرق معالجته العادلة. لكن الذي يعلم أن العمل أُنجز وفق العقد، ويملك أداء الأجر، ثم يترك العامل ينتظر يومًا بعد يومٍ لمجرد أنه يستطيع، لا يبرئه كثرةُ ما يُنفقه في أبواب الخير الأخرى. إن حقَّ هذا العامل سابقٌ على نافلةٍ يحب صاحب المال ظهورَها؛ وفي إنصافه عبوديةٌ خفيةٌ يختار فيها صاحب العمل رضا ربِّه على ما تستسهل نفسه من التأخير.

وكم يحتاج العامل في يومه العادي إلى مثل هذه الطمأنينة: أن يكون حقه محفوظًا وإن تأخر سؤاله، وأن يرى في صاحب العمل رجلًا يخاف الله فيمن ائتمنه الله عليهم.

حين تصل الأجرة إلى مستحقها في موعدها، يعود إلى بيته ومعه بعض سكينة العيش. ومن أدّاها وهو يرجو رضا الله عرف أن العدل الذي أوجبه الله باب قربٍ، وأن إنصاف الإنسان أكرم من مظهر صدقةٍ تُحجب وراءه حقوقُ الناس.

حقّ البيت الذي لا ينتظر الثناء

قد يعود صاحبُ المال بعد عمله فيحسب ما بقي لديه، وينظر إلى نفقة أسرته كأنها عبءٌ يسبق الأشياء التي يرغب فيها. وربما توسعت عليه الدنيا فزاد نصيب ما يختار لنفسه، بينما بقي حقُّ من تجب عليه نفقتهم آخرَ ما يلتفت إليه. لكن القرآن يجعل معاش الأسرة من مواضع العدل والتقوى، لا من الهوامش التي تُترك للمزاج.

قال الله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7].

جاءت الآية في أحكام النفقة المرتبطة بالطلاق، وفيها ميزانٌ واضحٌ للسعة والضيق: ذو السعة ينفق من سعته، ومن ضُيّق عليه ينفق مما آتاه الله. فلا يجعل الموسِر نفسه كالمعسر ليمنع ما يجب عليه، ولا يُكلَّف المعسر ما لم يؤته ربه. ولتفاصيل النفقة بين الأزواج والأقارب أحكامٌ تتفاوت بحسب الحال والعرف المعتبر والنصوص الأخرى؛ ولكن الآية تربي أصلًا كبيرًا: الحقوق لا يحكمها وحده ميل صاحب المال، بل أمر الله وعدله.

وفي صحيح مسلم أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما سأل المسؤول عن شؤونه: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ فلما قال: لا، أمره أن يعطيهم، ثم ذكر قول رسول الله ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ» (رواه مسلم، 996). وجاء بلفظ «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ» عند أبي داود (1692).

فلا يليق بمؤمنٍ يحب أن تكون له منزلةٌ في أبواب العمل الصالح أن يستخف بحقّ إنسانٍ تعلق عيشه بما ألزم الله به من يقوم عليه. قد يَعِدُ أبناءه بما لا يستطيع، ثم يعتذر عن ضرورةٍ يستطيع أداءها، وقد يرعى ما يحب من المظاهر ويترك الحاجة الحقيقية. ولا يكون الوفاء بالحقوق كاملًا بالمال وحده، ولكن المال الذي تلزمه نفقتُه ينبغي أن يصل إلى موضعه بالمعروف من غير إذلال.

ومن أجمل ما يغيّر شعورَ صاحب النفقة أن يعلم أنه لا ينفق تحت قهرٍ منفصلٍ عن محبته لله، بل يطيع ربَّه فيما جعل له من أهلٍ ومسؤولية. لا ينتظر أن يشكره طفلٌ على طعامٍ وجب له، ولا يعاير زوجةً بنفقةٍ واجبة، ولا يجعل إعطاء حقٍّ سببًا لتسلطٍ في القول. يكفيه شرفًا أن الله اطّلع على ما أدّى وهو يعرف أن الطاعة قد تقع في أبسط الحاجات التي تتكرر كل يوم.

وحين يصل حقُّ من تجب نفقتهم إليهم، يستطيع صاحب المال أن ينظر إلى ما وراء الواجب من وجوه الإحسان، ولكن جمالَ النفقة يبدأ من موضعٍ أقرب: أن يطمئن أهلُ البيت إلى أن حاجاتهم الواجبة محفوظةٌ بالمعروف، قبل أن ينتظروا فضلًا اختياريًّا.

حين اتفق أصحابُ الجنة على أن يُقصوا المحتاجين

ومن حقوق المال ما يبدو لصاحبه أنه لا يدخل في حساب أحدٍ غيره حتى يحين وقتُ إخراجه. في سورة القلم قصةٌ لم تتقدم فيها إلى الناس يدُ طالبٍ يختصم، وإنما تقدمت إلى قلوب المالكين فكرةٌ: أن يصلوا إلى ثمر جنتهم مبكرين، وألا يدخل عليهم مسكينٌ يستحق من خيرها ما كان يدخل.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: 17–18]. ثم رأينا ما حدث للجنة حين أصابها طائفٌ من ربهم وهم نائمون، فأصبحت كالصريم [القلم: 19–20]. ولم يجعل القرآن موضع العظة مجرد زوال الثمرة، بل عاد إلى الحديث الذي كان يدور بينهم وهم يخفون قصدهم: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ۝ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۝ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ [القلم: 22–24].

ما الذي تغير في قلوبهم قبل أن يتغير بستانهم؟ اتفقوا على الحرمان. كان المال ما زال في الأرض، والثمرُ ينتظر الجني، لكن القرار سبق اليد: لن يدخل مسكين. ومثل هذا القرار قد يتخذ صورةً أقل وضوحًا؛

أن يفكر صاحب المال طويلًا كيف يمنع مستحقًا معلوم الحق، وأن يجعل اجتماع الأسرة أو الإدارة مكانًا تُبنى فيه حيلةٌ على الضعيف بدل أن تُبنى فيه خطةٌ لأداء الحق. لهذا تضع القصة إصبعها على موضعٍ لا تلتقطه حسابات الغلة: قد يبدأ ظلم المال بنيةٍ يتواطأ عليها القادرون قبل أن يُحرَّك منه درهم.

وأورد المفسرون أن أصحاب الجنة كانوا يريدون منع ما اعتاده المساكين من ثمرها، وبيان نوع حقهم وطبيعته في تفاصيل القصة يُرجع فيه إلى التفسير. فلا يلزم من ذلك أن نجعل كل مالكٍ ملزمًا بإعطاء كل سائلٍ من حصاده بلا تفصيل، وإنما يظهر من مساق الآيات ذم إرادة حرمان المساكين والاستقواء عليهم بما في اليد. وكم هو قبيحٌ أن يرتب أناسٌ يوم عملهم كله بحيث لا يجد صاحب حاجةٍ بابًا يعرفه، لا حرصًا على حقٍّ مشروعٍ بل لكيلا يصل إليه شيءٌ من الخير الذي كانوا يعرفون وصوله.

ولم يبق أصحاب الجنة في غرورهم حين رأوا عاقبة عملهم، قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: 29]، ثم أقبل بعضهم على بعضٍ يتلاومون، وقالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم: 31]. وفتحوا باب الرجاء فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: 32]. ففي القصة تحذيرٌ من ظلمٍ يبدأ بالتواطؤ، وبابُ إنابةٍ لا يُغلق على من عرف خطأه، لكن الإنابة لا تُصحح ظلمَ الناس بمجرد الأماني، بل تحتاج إصلاحًا ووفاءً حيث ثبتت الحقوق.

والمال الذي يُحب صاحبه أن يزيده الله فيه لا ينبغي أن يُربّي قلبه على استبعاد الضعفاء من حسابه. قد يكون بين ما يملك حقٌّ واجب، وقد يكون بابُ مساعدةٍ مستحبةٍ يفتح له الله به خيرًا؛ ولكلٍّ حكمُه. أما الدرس الذي تضعه القصة في الصدر قبل كل تفصيل فهو ألا يفرح المؤمن بتدبيرٍ حاذقٍ يحرم به ضعيفًا من حقٍّ قرره الله، وأن يعرف أن الله يعلم ما يتناجى به أصحابُ القوة حين يظنون أن المساكين لا يسمعون.

المال الذي نُزعت منه حقوقُه

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، ثم ذكر وعيدهم يوم تُحمى عليها في نار جهنم فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم [التوبة: 35]. هذا وعيدٌ يَثقل على القلب حين يتوهم صاحب المال أن مجرد ادخاره يعني أنه قد برئت ذمته.

وقد رجّح الطبري في معنى الكنز المذموم هنا أن المال الذي أُديت زكاته ليس من الكنز المتوعد عليه، وأن المذموم ما لم يُؤدَّ حقُّ الله الواجب فيه، ولو لم يظهر للناس مقدارُ ما ادخره صاحبه. فلا يُحوَّل الوعيد إلى تحريم الادخار الذي أباحه الله، ولا يُجعل حسن التنظيم المالي حجةً لإسقاط الزكاة إذا وجبت. إنما يراد أن تبقى العين منصرفةً إلى الحق الذي أمر الله بإخراجه، لا إلى البريق الذي يغطيه.

قد يمضي عامٌ يتابع فيه صاحب التجارة نموَّ أمواله يومًا بعد يوم، ويعرف أدق أسباب الربح والخسارة، ثم يغفل أن يسأل عن زكاتها وشروط وجوبها ومقدارها. ماذا لو جعل لمعرفة هذا الحق من العناية ما يجعل لصفقاته وعقوده؟ الزكاة ركنٌ وحقٌّ شرعه الله، تُخرج حين تجب بشروطها، ولها أحكامها ومصارفها. ومن حلاوة الإيمان أن يرى المزكي نفسه موفّقًا إلى عبادةٍ صان الله بها ماله من أن يستبد به، ووصل بها حقَّ المستحق إلى صاحبه.

ليس لك أن تمسك كل ما تحت يدك لمجرد أنك قادر على التصرف فيه. فمِن المال ما يجوز لك ادخاره وحفظه، ومنه حقٌّ أوجب الله إخراجه عند تحقق شروطه. وحين يدفع العبد هذا الحق إلى مستحقه، يكون قد شكر المنعم بالفعل قبل القول.

الأمانة التي لا يراها أصحاب الحقوق

الدَّيْن: حقٌّ يبقى في ذمتك وإن غاب صاحبه

ربما تأخذ مالًا تقضي به حاجةً ثم تمر الأيام، وتصبح قادرًا على الوفاء، لكن نفسك تستثقل خروجه. وتبدأ تقول: الدائن في سعة، وهو لا يحتاج إلى هذا المبلغ الآن، أو انتظر حتى أوسع على نفسي قليلًا. وقد تُدخل إلى بيتك أشياء ليست ضروريةً وأنت تعلم أن صاحبَ الدين ينتظر وعدًا قطعته له. عند هذا الموضع يكون المال في يدك، لكن حقَّ الدائن الثابت في ذمتك لا يزول لمجرد أنك أنفقت المال المقترض أو اختلط ببقية أموالك.

قال الله تعالى في أطول آيةٍ من كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: 282]. وتمضي الآية تفصل وسائل حفظ الحق بالكتابة والإشهاد والعدل في التوثيق. وفي هذا طولٌ مقصود من البيان؛ فحقوق الناس لا ينبغي أن تُترك معلقةً على ذاكرةٍ تتغير، أو حياءٍ يمنع السؤال، أو ثقةٍ تُهمل معها وسائل الحفظ المشروعة.

ثم قال الله في الآية التالية: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: 283]. حتى عندما يستغني المتعاملان عن بعض وسائل التوثيق لثقةٍ بينهما، لا يصير الحقُّ مباحًا للنسيان. بل يأمر الله المؤتمن أن يؤدّي أمانته وأن يتقي الله ربَّه. فكأن صاحب المال الذي لا يراقبك قد سلَّم أمرًا إلى أمانتك، وجاءك أمرُ ربك ألا تخونه.

قال رسول الله ﷺ: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ» (رواه مسلم، 1886). يُبقي الحديث حق الآدمي حاضرًا حتى في مشهدٍ نال فيه العبد أعظمَ شرفٍ من الشهادة. من خلّف دينًا فالواجب العناية

بأدائه من تركته بحسب أحكامه. ولمن بقي حيًّا أن يتدارك ما يستطيع قبل أن يصير الحقُّ حكايةً يرويها الآخرون عنه.

في السنة ميزانٌ مريحٌ لمن يحب أن يحسن الوفاء: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ» (رواه البخاري، 2387). بدأ الحديث بالنية؛ فالذي يستدين وهو صادقُ العزم على الأداء ليس كالذي يأخذ وفي نفسه أكل حقوق الناس. لكنه لا يجعل النيةَ بديلًا من بذل الأسباب، ولا يعفي القادر من سداد ما حلّ عليه. إن صدق النية يحمل صاحبه على الحساب والاحتياط والوفاء، وعلى إخبار الدائن بما يعجز عنه بصدقٍ دون مداورة.

وأخبر رسول الله ﷺ عن رجلٍ من بني إسرائيل استقرض من آخر ألفَ دينار. سأله صاحب المال شهودًا وكفيلًا، فقال المقترض: «كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا»، وقال: «كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا». فرضي المُقرض، ودفع إليه المال إلى أجل معلوم. خرج الرجلُ في البحر، فلما فرغ من حاجته بحث عن مركبٍ يبلغه صاحبه عند حلول الأجل، فلم يجد؛ فاشتد عليه أن يتأخر المال عمن ائتمنه.

أخذ خشبةً فنقرها، ووضع فيها ألف دينارٍ وصحيفةً إلى صاحب الدين، وأغلقها، ثم أتى بها البحر يناجي ربه بما بذل من جهدٍ في البحث عن مركب. قال: «وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا»، وألقاها في الماء. وخرج الدائنُ يرقب مركبًا يحمل إليه ماله، فوجد الخشبةَ وأخذها حطبًا لأهله؛ فلما نشرها وجد المال والرسالة.

لم يكن المقترض قد علم بوصول الخشبة؛ لذلك ظل يبحث عن سبيلٍ للوصول بنفسه إلى صاحبه، وحين قدم أتاه بألف دينارٍ أخرى. فقال له الدائن: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا» (رواه البخاري، 2291، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه).

لم تكن الخشبة بديلًا من العمل ولا حيلةً للاعتذار عن التأخير؛ لقد بحث المدين عن المركب، ثم بحث ثانيةً وجاء بالمال مرة أخرى حتى تبيّن له وصوله. رأى الدائن وفاءَ صاحبه، ورأى القارئ من خبر الصادق ما يُعينه على الصدق إذا ضاقت عليه الأسباب.

وقال النبي ﷺ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ» (متفق عليه؛ البخاري، 2287، ومسلم، 1564). كلمةٌ قصيرةٌ تضع أمام المقتدر الذي يؤخر الدفع حقيقةً قد كان يسترها بأسماءٍ ألطف: ذلك ظلم. قد يقول في سره إن المبلغ صغير، لكنه كبيرٌ عند من ينتظره؛ أو إنه يستطيع أن يضغط على الدائن فيصمت. ومهما طال صمت صاحب الحق لا يتبدل الظلم إلى إذنٍ له.

وليس كل متأخرٍ في السداد مماطلًا غنيًّا، فقد يعجز المرء عجزًا حقيقيًّا، ويُبتلى بضيقٍ لا يستطيع معه الوفاء حين يحين الأجل. وهنا يأتي قرآنٌ آخر يحفظ حقَّ الطرفين دون أن يجعل أحدهما خصمًا لرحمة الله:

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280].

أمر الله بإنظار المعسر إلى ميسرة، وفتح باب الإبراء فضلًا. فالإنظار ليس إبطالًا لحق الدائن، كما أن بقاء الحق لا يسوغ له معاملة المعسر معاملة المماطل المقتدر. ولمن شاء أن يعفو عن حقه المشروع بابُ قربٍ من الله لا يخفى عليه ما كلفت هذه السماحة نفسَه.

قد يشعر الدائن أن حقَّه في يده من تمام أمنه، وقد يكون كذلك محتاجًا إليه حاجةً صحيحة. فلا تُطلَب منه تضحيةٌ لا يلزمه الشرع بها باسم أخوته أو رحمته، ولا يُؤمر المدين بما لا يستطيع من أداءٍ فوري. لكن يُطلب من كلٍّ منهما ما جعله الله عليه؛ ويكون جمال التقوى أن يجد كل واحدٍ منهما في أمر ربه ما يصون به حق الآخر، وإن كان في أداء ذلك كلفةٌ على نفسه.

مالُ الناس الذي تُؤتمن عليه دون أن تملكه

لصاحب المال الخاص أن يتصرف فيما يملكه على وجهٍ مشروع، ولكن الإنسان قد تكون في يده أموالٌ لأنه موظفٌ أو وكيلٌ أو مؤتمنٌ أو مسؤولٌ عن مرفق. ربما يوقّع على صرفٍ، أو يختار موردًا، أو يراقب مشروعًا، أو يجمع مالًا باسم جهةٍ عامة. وتكون أمامه مصلحةٌ شخصيةٌ يمكن أن تدخل من باب عمله: هدية، أو نسبة، أو استعمالٌ لا يُحاسَب عليه، أو مالٌ يظن أن أحدًا لن يفتش عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 161].

الغلول في أصله الخيانة في الغنيمة، وجاء الوعيد بمن يأتي بما غلّ يوم القيامة. وليس كل تصرفٍ إداريٍّ جديدٍ في عصرنا داخلاً في اصطلاح الغلول الخاص عند الفقهاء من غير تفصيل، لكن المعنى الذي يوقظ القلب هنا واضح: ما استُؤمن عليه الإنسان ليس ملكًا له لمجرد أنه قادرٌ على الوصول إليه. وقد تلتبس حدود التفويض والصلاحية والمكافآت المشروعة، فتحتاج إلى نظامٍ واضحٍ وعلمٍ بالحكم؛ أما من يعلم أن ما يأخذه ليس له فإن طول بقائه في الوظيفة لا يُحِلُّ له الخيانة.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (رواه البخاري، 3118). والمال الذي وُكل إليك بحكم ولايةٍ أو إدارةٍ أمانةٌ يجب صرفها في وجوهها المشروعة،

ويجب صون حقوق أصحابها من المحاباة. في المقابل، لا تُمنع النفقة المعتمدة ولا المقابل الوظيفي المشروع باسم الورع؛ إنما ميزان العبودية أن تعرف أين ينتهي حقُّ وظيفتك وتبدأ أمانةُ غيرك.

ومن السنة قصةٌ شديدة التأثير في هذا الموضع؛ استعمل رسول الله ﷺ رجلًا على الصدقة، فلما رجع قال: «هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي». فخطب النبي ﷺ الناس وأنكر أن يجعل العاملُ ما جاءه بسبب وظيفته هديةً شخصيةً بغير حق، وقال في معنى ذلك: «أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟» (رواه البخاري، 2597؛ ومسلم، 1832، من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه).

لو لم تكن في هذا المنصب، هل كانت الهدية ستأتيك على هذا الوجه؟ لقد فرّق النبي ﷺ بين ما أُعطي للإنسان لذاته من طريقٍ مشروع، وما وصل إليه بسبب سلطةٍ أؤتمن عليها. وقد تكون الهدية في نظر الناس صغيرةً لا تستحق الوقوف، لكن أصلَ الإشكال ليس في حجمها وحده؛ في السبب الذي جعلها تدخل إلى يد الموظف، وفي حق الجهة والناس الذين يخدمهم. وأحكام الهدايا الوظيفية تختلف باختلاف الصلة والمصلحة والتنظيم المشروع، ومن الورع أن يفحص المرء موضع الشبهة قبل أن يُدخل الهدية إلى بيته.

تخيَّل مسؤولًا يُعرض عليه ما لا يُعرض على غيره لأنه يملك اعتمادًا أو توقيعًا. يستطيع أن يستريح إلى قوله: «لم أطلب شيئًا»، ولكن حديث النبي ﷺ يسأله عن سبب العطاء، لا عن الطلب الصريح فقط. ويجد في نفسه لذةً أخرى لا يعرفها من جمع المكاسب الخفية: أن يُغلق باب الانتفاع غير المشروع بسلطته، ويعلم أنه لم يجعل حاجة الناس إليه موردًا لماله الخاص.

وقد يكون أعظم ما يؤديه صاحب الأمانة أن يحافظ على موردٍ عامّ لا يعرف أصحابُ الحق فيه أسماءهم واحدًا واحدًا. لا يرفع فواتير وهمية، ولا ينتفع بخدمات المؤسسة لنفسه بغير إذنٍ مشروع، ولا يقدم مصلحة قريبةٍ له على حقّ عامّ يعلم أنها تخالفه. في هذا الموضع يمكن أن يكون العمل المؤسسي عبادةً عظيمةً لا يصفق لها أحد؛ لأنه يرى أن الله مطلعٌ على القرارات التي تسبق الأرقام والعقود.

أن تستريح حين تبرأ ذمتك

قد يثقل عليك ردُّ مبلغٍ تحتاج إليه، فيحتاج أداء الحق إلى مجاهدة النفس. ولكن العبد الذي يحب الله يجد فيما أمره به ما يستحق أن يُجاهد من أجله، ولو خرج المال من يده ولم يَمدحه أحد. وإذا أنصف عاملًا أو وارثًا أو دائنًا، فقد اختار رضوان الله في موضعٍ استطاع فيه أن يختار هوى نفسه.

وأصل ذلك كله ما قاله الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]. لم يقل إلى مَن يحبهم صاحب المال أو إلى من يقدرون على المطالبة أو إلى مَن يملكون صوتًا مسموعًا؛ بل ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. إنه وصفٌ يردّ كل أمانةٍ إلى موضعها. وفي آخر الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. بهذه الموعظة يحمي الله عباده من بعضهم. والسميع البصير يعلم حال صاحب الحق الذي لا يستطيع أن يتكلم، ويعلم قلبَ المؤتمن إذا غلب شهوته وأدّى ما عليه.

وحين تردّ حقًّا لا يطالبك به صاحبه، لا تدعُ نفسك إلى انتظار أن يرى الناس نزاهتك. لعل صاحب الحق لا يراك إلا مؤديًا لما وجب، وهذا حقُّه؛ أما أنت فلك أن ترجُو من ربك أن يجعل أداء الواجب سببًا لقربك منه ورضاه عنك. وإذا كنت قد قصّرت في حق إنسان، فلا تجعل الخوف من الاعتراف يحول بينك وبين الإصلاح؛ يبدأ الطريق بأن تكفَّ الظلم، وتعرف الحق، وتردَّه، وتعتذر حيث يحتاج صاحبه إلى ذلك وتقتضيه المصلحة، وتسأل الله أن يُعينك على التوبة والوفاء.

وربما وجد صاحب الأمانة أنه وحده يعرف تأخر الحق، وأن الناس يثقون به، فكان أخوفَ ما يخافه أن يُخالف علمُ الله فيه ظنَّهم به. يعيد الحق، ويصلح ما أفسد، ثم يحمد الله أن يسّره لبراءة الذمة.

وحين تستريح من ظلمٍ كاد يلتصق بيدك، يبقى بين يديك مالٌ أحلّه الله لك. تستطيع أن تحفظه لما ينفع، وأن تنفقه في مباحٍ جميل، وأن تجعله بعد ذلك طريقًا إلى إحسانٍ تختاره ابتغاء مرضاة الله.

فيم أنفقه؟

حين يصير البذل محبوبًا إلى القلب

حين يكون الإنفاق على نفسك امتحانًا أيضًا

قد تكون عند مائدةِ بيتك، أو أمامَ قائمةٍ لنفقات زواجٍ قريب، أو تسمع ولدك يطلب شيئًا لأنه رآه عند أقرانه. الاختبار هنا في مالٍ أباح الله لك الانتفاع به، بعيدًا عن مطالبة دائنٍ أو سؤال محتاج. ماذا تختار؟ ما الذي تحتاجه فعلًا، وما الذي تريده لئلا تكون أقلَّ من غيرك في أعين الناس؟ في هذه المواقف الصغيرة يتربّى القلب، وقد تكون أصدقَ امتحانٍ لحب المال من مواقف التبرع التي لا تقع كل يوم.

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. لم يأمر الله بترك المآكل والمشارب والملابس الطيبة؛ أباح الانتفاع وأمر بترك الإسراف في السياق نفسه. فالأصل في المباح أن يكون نعمةً يُشكر عليها الله، ويعرف العبد قدرها من غير أن تصير شهوته معيارًا لكل قرار.

وليس الإسراف رقمًا واحدًا يصلح لكل بيت؛ تختلف أحوال الناس وطاقاتهم وحاجاتهم وما جرى به العرف الصحيح. لكن قد تعرف النفس لحظةَ مجاوزة الحد حين تشتري ما لا تحتاجه لتُثبت مكانتها، أو تحمل نفسها دينًا ثقيلًا لتحاكي حفلًا رآه الناس، أو تترك ما ينفع أسرتها لتستبقي صورةً أمام الآخرين. وما أصعب أن تُسمّى هذه النفقة «كرمًا» ويعود صاحبها إلى بيته وفي ذمته ما يعجز عن الوفاء به.

ثم يجمع القرآن طرفَي الميزان في سورة الإسراء، بعد الأمر بإيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: 26]، ويقول: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27]. ليس المال الذي خرج من اليد محمودًا لمجرد خروجه؛ ينظر الشرع إلى موضعه ووجه استعماله. فالطعام الذي يذهب هدرًا، والشراء الذي تُهدر به النعمة، لا يصيران خيرًا بكثرة ثمنهما.

ويجيء الطرف الآخر: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29]. البخل يمنع حقًّا أو خيرًا يُستطاع، والإفراط قد يذهب بما تقوم به المصالح.

وبينهما اليد التي تعرف متى تُمسك لمصلحةٍ راجحة، ومتى تبذل في حقٍّ أو إحسان. وفي وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67].

قد يُفرحك أن تهيئ لأهلك مناسبةً حسنةً تجمعهم وتُدخل السرور عليهم. لا حرج في أصل الفرح والزينة المباحة؛ بل قد تكون النفقة فيهما موضعَ شكرٍ وصلة. لكنك تستطيع أن تسأل، وأنت تختار، أيَّ شيءٍ يبقى نفعه بعد انفضاض المجلس، وأيَّ شيءٍ لن يبقى منه إلا دينٌ أو حسرة. والقرار نفسه يعرض على الأب حين يستجيب لطلب ابنه، وعلى الأم حين تتصرف في مالها، وعلى الشاب حين يبدأ أول دخلٍ له. لا تُقاس كرامة البيت بما يحاكي به بيوتَ الآخرين.

ومن حسن الإنفاق أن تحسن ترتيبَ المال قبل أن يُنفَق: حفظُ نفقة من تلزمك رعايته، وأداءُ الحق الحالّ، ومراعاةُ ما يحتاجه الغد من غير استعبادٍ بالخوف؛ ثم المتاع المباح الذي تستعمله شاكرًا. وقد يسرّ الله لعبده أن يجمع حسنَ الانتفاع بماله مع أبوابِ عطاءٍ يتقرب بها إليه. عندئذ لا يكون سؤال «فيمَ أنفقه؟» حاصرًا للحياة في الصدقة، بل ميزانًا لكل ما يخرج من اليد.

حين ينفق العبد ابتغاءَ وجه الله

ثم يبلغك خبرُ حاجةِ إنسانٍ تعرفه. ليس له عليك دينٌ ولا أجرةٌ ولا حقٌّ شخصيٌّ ثابت. تستطيع أن تستبقي مالك لمباحاتك، لكنك ترى فرصةً أن يصل إليه شيءٌ تحبّه. هنا يفتح الله لعبده بابًا زائدًا على براءة الذمة: أن يحب الإحسان لأنه يحب ربه، وأن يفرح بأن صار ما يملكه نفعًا لعباد الله.

حبةٌ صغيرة في يد العبد، وثوابٌ واسع عند الله

يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261].

ما كان العبد ليقدّر هذا الوعد من نفسه. هو يعرف المال الذي خرج من يده وربما لا يرى من عاقبته إلا قضاءَ حاجةٍ صغيرة. لكن الله يعلمه أن يقرأ فعله في ضوء سعة فضله. حبةٌ واحدة، ثم سنابل، ثم حبوبٌ لا تشبه البذرة الأولى في عددها؛ وهذا من أمثال نماء الأجر. ويأتي قوله ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فيبقى الفضل مفتوحًا لما شاء ربٌّ واسعٌ عليم.

﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: يجتمع في الاسمين ما يحتاجه قلب المنفق؛ فسعة الله تطرد توهُّم أن خزائنه يَنقُصها عطاؤه، وعلمه يُطمئن عبدًا لا يعرف أحدٌ كفاحه مع نفسه. يعلم كيف كسبتَ، وما لزمك حفظه لبيتك،

ولماذا بذلت، ومن الذي أصابته منفعتك، وما سترتَه عن أعين الخلق. وقد تعجز عن إعانة كل من تعرف حاجته، فلا يَخفى على الله ما عجزتَ عنه وما استطعتَه؛ إنما تعمل بما آتاك، وتصدق حيث تقدر.

وجاءت السنة بمشهد يزيد القلب عجبًا ورجاء. قال رسول الله ﷺ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ - إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ» (رواه مسلم، 1014، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو جزء من الحديث).

ما أبعدَ ما بين تمرةٍ قد لا يلتفت إليها الناس وبين هذا الشرف الذي أخبر به رسول الله ﷺ! نؤمن بما جاء في الخبر من غير تمثيلٍ لصفات الله بصفات خلقه، ونقف مع مقصوده هنا: إن الصدقة من الكسب الطيب ليست شيئًا ضائعًا خرج من بيت صاحبه، بل عبادةٌ يقبلها الله ويُنمّي ثوابها بما شاء من كرمه.

إذا كان الله يقبل من عبده تمرةً طيبةً ويُنميها، فكيف يحتقر صاحبُ الدخل القليل ما يستطيع تقديمه؟ قد يحتاج إنسانٌ إلى طعام يوم، أو دواء، أو أجرة طريق، وقد لا تعرف أنت من أثر مساعدتك إلا أنها وصلت. يكفي أن الله لم يجعل قدر عملك مقصورًا على الثمن الذي دفعته. وبقدر ما يُعجب العبد بكرم ربه يستحيي أن يجعل همَّه الوحيد: ماذا عاد إليَّ في حسابي؟

خيرٌ قد تضيعه كلمةٌ بعد العطاء

ثم لم يترك القرآنُ المنفقَ مفتونًا بمضاعفة الأجر قبل أن يُعلّمه كيف يصون صدقته، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 262].

انظر إلى ﴿ثُمَّ﴾: ربما أُخرجت الصدقة وانقضى يومُها، لكن امتحانها لم ينقضِ. قد يمرُّ عامٌ ويقع خلافٌ بين اثنين، فيستدعي المعطي ما أعطاه فيجعله سلاحًا. وقد يأتي المحتاج شاكرًا فيُقال له أمام الناس ما يذكره بفقره. لم تُسلب منه المنفعة المالية، لكن قلبه صار يدفع ثمنها عند كل لقاء. وحين ينهى الله عن المنِّ والأذى، فهو يصون عمل المتصدق من الفساد ويصون الإنسان الذي وقعت في يده الصدقة من أن يكون موضع إذلال.

وقال سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 263]. قد لا تستطيع إعطاء السائل كلَّ ما يسأل، لكنك تستطيع أن تحفظ لسانك، وأن تردَّه بكلمةٍ لينةٍ

لا تحطُّ من قدره. وتأمل مجيء ﴿غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ في آخر الآية. الله الغني لا يحتاج إلى صدقتك، وإنما أنت الذي تحتاج أن تتقرَّب إليه، وهو الحليم الذي لا يعاجل عباده وقد يفسدون خيرهم بما يجري على ألسنتهم. فكيف يتعالى عبدٌ بما في يده، وهو مدينٌ في أصل ملكه لرزق الله وإحسانه؟

ويبلغ التحذير مشهدًا لا تتركه العين سريعًا. يقول الله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: 264]. ثم يضرب للإنفاق المرائي مثلَ حجرٍ أملسَ عليه ترابٌ، أصابه مطرٌ شديدٌ فتركه صلدًا، ويقابل ذلك في الآية التالية بإنفاق من يبتغون مرضات الله وتثبيتًا من أنفسهم، كبستانٍ بربوةٍ أصابه وابلٌ فآتَى أُكله ضعفين، فإن لم يصبه وابلٌ فطلٌّ [البقرة: 264-265]. الصورة الأولى تفضح كثرةً بغير أصلٍ صالح، والثانية تُريك خيرًا ينمو من قصدٍ صالحٍ ولو اختلف مقدار ما يأتيه.

ثم يسوق القرآن صورةً أخرى أشدَّ إيلامًا: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: 266]. رجلٌ بلغ من العمر ما لا يستطيع معه إعادة ما ضاع، وحوله ذريةٌ ضعفاء، فإذا مصدر عيشهم يحترق حين اشتدت حاجتهم إليه.

وقد جعل الطبري هذا في سياق التحذير من إحباط العمل بالمنِّ والأذى والرياء. يرجو العبد ثواب عملٍ، ثم قد يُعرِّضه للضياع بما أفسد نيته أو آذى به عباد الله. ليس الخوف هنا خصومةً مع فرحة البذل، بل حراسةٌ لما تحبُّ أن تلقى الله به.

ويظهر أثر هذا التعليم في تفاصيل لا تُعلن: أن تعطي محتاجًا فلا تجعل ذكر حاجته خبرًا في مجالسك، وأن تعينه على دفع نفقاتٍ لا يطيقها فلا تذكّره في كل مناسبة أن فضلَك سابقٌ عليه، وأن ترفض طلبًا لا تقدر عليه بالمعروف. ولستَ مطالبًا بأن تسمّي الحاجة شرفًا على المحتاج؛ إنما أن ترى أن أخاك في إنسانيته وكرامته مثلك، وأن الله قد فضَّل بعض عباده على بعض في أسباب العيش ليبلو الجميع فيما آتاهم. أيُّ جمالٍ للصدقة إن دخل معها إلى بيت المحتاج ما يحزنه من كلامك؟

المال الطيب حين يصير طريقًا إلى المغفرة

ثم يأمر الله بإخراج الطيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 267]. انظر كيف يعود الأمر إلى مصدر المال وصفته معًا: لا تُنشئ معروفًا بمالٍ أُخذ ظلمًا، ولا تتعمّد الرديءَ لتؤديه في صدقةٍ تستخف بها بصاحب الحاجة. وقد ذكر الطبري في تفسير الآية صورًا من إخراج الرديء من الثمار، وفيها تفصيلٌ لا يحول كلَّ مستعملٍ صالحٍ إلى مالٍ ممنوع التصدق به.

﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 267]. تخاطبك الآية بما تعرفه من نفسك: لو أُعطيتَ الرديء من مالٍ أو ثمرٍ على أنه حقٌّ لك، هل تأخذه راضيًا أو تتجاوز عن عيبه مُغمِضًا؟ فلماذا تختار للقرب من الله ولحاجة عباد الله ما تستثقله لو قُدِّم إليك؟ وليس في الآية منعُ الصدقة بكل مستعملٍ صالحٍ أو شيءٍ قليل القيمة؛ إنما يَفسُد أن تجعل ما تُخرجه باسم الخير ذريعةً للازدراء، أو ستارًا للتخلص مما لا ينفع الآخذ أو يضره.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]. ربُّك غنيٌّ عن صدقتك، محمودٌ على رزقه وحكمه. ومن عرف غناه وحمده اختار مما رزقه طيبَه، يرجو عطاءَ ربِّه لا ثناءَ الناس.

المعروف الذي يرى صاحبَه قبل أن يَسأل

ومن الحكمة في النفقة أن يقع الخير في موضعه: لا يُستبدل به ظلمُ مستحق، ولا يفسد بالتعالي على محتاج، ولا يذهب إلى بابٍ يضر أكثر مما ينفع.

ويقول الله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: 270]. قد يغيب معروفُك عن الجميع، ولا يغيب عن الله. والنذر ليس سبيلًا مطلوبًا لاستجلاب النعمة؛ إنما تذكُر الآيةُ علمَ الله بما ينفق الناس وما يلتزمونه.

ثم يقول سبحانه: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 271]. وقد يكون إعلان الصدقة سبيلًا إلى الاقتداء أو تحقيق مصلحةٍ معتبرة. لكنّ إخفاءها، ولا سيما حيث يصون قلبك وكرامة آخذها، بابٌ كريمٌ من أبواب الإخلاص.

وفي الآية التالية يعيد القرآن الفضل إلى المنفِق: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 272]. ومن تمام الرحمة بالمحتاج أن لا تنفق لتملك قلبه أو تُبدّل اختياراته بالإذلال، وإنما ترجُو وجه الله فيما تعطي.

ثم ترسم الآياتُ وجهًا لا يُرى في كل طوابير السائلين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]. قد يتألم إنسانٌ قريبٌ منك ولا يحب أن يَعرض حاجته. في هذه الآية دعوةٌ إلى عينٍ رحيمةٍ تُبصر من يستعفّ، لا إلى فضح ستره باسم التحري.

وتُختَم هذه الآيات بوعدٍ جامعٍ لوجوه العطاء: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 274]. سرًّا حين ينفع الستر، وعلانيةً حين تدعو إليه مصلحةٌ صحيحة؛ والعمل في الحالين عبدٌ يقف بين يدي ربِّه يرجو القبول.

ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» (رواه البخاري، 5352؛ ومسلم، 993). يسمع العبدُ نداءَ ربٍّ غنيٍّ واسعِ الفضل، فيعمل راجيًا ما عنده، ويحسن التصرف فيما بقي له، ويُبقي النفعَ لمَن يعولهم حاضرًا أمام عينيه.

السخاء حين تراه في يد رسول الله ﷺ

كان أبو ذرٍّ رضي الله عنه يمشي مع النبي ﷺ في حَرَّة المدينة، فاستقبلَهما أُحُد، فقال له رسول الله ﷺ: «مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا، تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا شَيْئًا أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا». وأشار عن يمينه وعن شماله ومن خلفه (رواه البخاري، 6444).

جبلٌ من الذهب لو كان في يده ﷺ، ما أحبّ أن يمر عليه ذلك الزمن وفي ملكه منه دينارٌ لم يُنفَق في عباد الله، ثم يُسمِعك في وسط السخاء استثناءً: «إِلَّا شَيْئًا أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ». وفي المشهد كمال سخاء رسول الله ﷺ مع حفظ حق الدائن، وتبقى لكل مسلمٍ مسؤوليته فيما يملك وينفق. هذا الذي علَّم أصحابه الوفاء بالديون هو نفسه الذي أحب أن يجري المال من يده إلى المحتاجين؛ فما أشرف المال حين تصحُّ وجهته!

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رجلًا سأله ﷺ على الإسلام، «فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ»، فرجع إلى قومه فقال: «يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ» (مسلم، 2312). لم تكن الغنم هنا مجرد زيادةٍ في ملك الآخذ، كان لعطائه ﷺ أثرٌ في قلب الرجل ودعوته قومه. ويُري هذا الخبر كيف جمع النبي ﷺ كرمَ اليد مع حكمةِ توجيه المال حيث يرجو به خيرًا للناس.

حين يخرج من يدك أحبُّ ما فيها

وإذا كان الله قد هداك إلى الإحسان من الطيب، فقد فتح لك مرتبةً تمسُّ محبةَ القلب نفسها، فقال: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92].

تتجه الآية إلى المحبة نفسها: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. فقد يُخرج المرء مبلغًا كبيرًا وهو سهلٌ عليه، ويشقُّ عليه بعض ما هو أقلّ منه لأن له في نفسه منزلةً لا تُقدَّر بثمنه. والآية لا تأمر بهجر جميع المحبوبات، ولا تجعل البرَّ كله محصورًا في المال، ولكنها تفتح طريقًا لصدق المحبة حين يُعرض على العبد أن يقدِّم شيئًا محبوبًا ابتغاء ما هو أحب.

وكان أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه كثيرَ النخل في المدينة، وكانت «بيرحاء» أحبَّ أمواله إليه، بستانًا مقابل المسجد، يدخل إليه رسول الله ﷺ ويشرب من ماءٍ فيه طيب. فلما نزلت الآية لم يقل أبو طلحة: سأنتظر حتى تخفَّ محبتي لهذا البستان، أو حتى تُصبح أرضه أقلَّ قيمةً عندي.

قام إلى رسول الله ﷺ وهو يعرف مكانه في قلبه، وقال: «وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ». فقال له رسول الله ﷺ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ»، وأشار عليه أن يجعلها في الأقربين، فقسمها في أقاربه وبني عمه (رواه البخاري، 1461، من حديث أنس رضي الله عنه؛ وفي بعض طرق الخبر «رَايِحٌ»).

تأمل عبارته: «أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ». كان يعرف ربح الأرض في الدنيا، لكنه صار يطلب لها موضعًا آخر في ميزان العمل. وما وصف النبي ﷺ هذا البذل بأنه خسارة، بل قال: «مَالٌ رَابِحٌ». ما تغيَّر حُبُّ أبي طلحة لبيرحاء حتى صار لا يشعر بقيمتها؛ الذي تغيَّر ما قدَّمه فوق هذا الحب.

لقد سمع أمر ربه، ورأى أن ما عند الله أحقُّ بما يحب. ثم لم يُغفل النبيُّ ﷺ مَن بينهم وبين صاحب المال رحمٌ؛ فدلَّه على إحسانٍ يصل قريبًا ويبلغ به أجرًا. في هذا المشهد قلبٌ يحب الله، ويدٌ تُخرج ما تحب، ونبوةٌ تهدي الإحسان إلى مَن ينتفع به. وذلك جواب ﴿جَمًّا﴾ كله: أن يبقى الحب، ويبقى فوقه حبٌّ أعظم منه.

تستطيع أن تنتفع بشيءٍ من المال وأن تبذل شيئًا منه. وقد يجيء موضعٌ يعرف فيه قلبك أنك قادر، وأنك تحب المال الذي بين يديك، وأنك تستطيع مع ذلك أن تجعل لله فيه نصيبًا من طاعةٍ تتطوع بها.

هناك يزكو معنى ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ في حياتك أنت.

أقربُ الناس إليك ليسوا خارجَ أبواب الأجر

وفي اللحظة التي يشتاق فيها القلب إلى البذل، تُعلّمه السنة أن هذا الشوق لا يقوم على نسيان مَن تعول. قال رسول الله ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ» (رواه مسلم، 995). وقال ﷺ: «وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ» (رواه البخاري، 5355).

نفقة أهلك حقٌّ لهم، وهي كذلك عبادة إذا قصدت بها وجه الله. تحمل الطعام إلى مائدتهم، أو تأتي بدواء يحتاجه صغيرٌ، وقد لا يلتفت أحد إلى هذا التعب. لكنه يصل إلى من تحب ويكون لك عند الله فيه رجاء. وهكذا تستطيع أن تحب نعمة المال، وتحب فوقها المنعم الذي فتح لك بها باب رعاية وستر ورحمة.

ولم يكن هذا الشرف وقفًا على الرجال. فقد سمعت زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما النبيَّ ﷺ يقول للنساء: «تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ». وكانت زينب تنفق على زوجها وعلى أيتامٍ في حجرها، فأرادت أن تعلم هل يكون ما تدفعه إليهم من صدقتها، فسألت عن ذلك بواسطة بلال رضي الله عنه، وأُخبر النبي ﷺ بشأنها، فقال: «نَعَمْ، لَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ» (رواه البخاري، 1466؛ ومسلم، 1000، بألفاظ متقاربة). هنا امرأةٌ صاحبة مال وبذلٍ وسؤالٍ عن موضع نفقته؛ لم تكن في القصة مجرد متلقيةٍ للنفقة، بل محسنةً اختارت أن ينال خيرُها أهلَ بيتها.

وقد تفتح لك أبوابُ الخير البعيد، وأنت لم تستوفِ حقًّا قريبًا منك. ابذل فيما تحب من أبواب الطاعة، لكن لا تجعل نفقةَ زوجٍ أو ولدٍ محتاجٍ أو دينٍ حالٍّ تُزاحَم بصدقةٍ اختيارية. وإذا وسّع الله عليك فبوسع قلبك أن يحمل شكرَ النعمة في أهلك، وأن يتّسع لنفعِ مَن وراءهم.

خيرٌ تنفع به أناسًا لا تعرفهم

لم يقتصر هديُ النبي ﷺ لأصحابه على إحسانٍ يخرج وينتهي أثره في يومه. أصاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرضًا بخيبر، فجاء يستشير رسول الله ﷺ، وقال: إنه لم يُصب مالًا قط أنفسَ عنده منه. فقال له ﷺ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا»؛ فجعلها عمر صدقةً لا يُباع أصلها ولا يُوهب ولا

يُورث، وجعل منافعها في وجوه الخير المذكورة في الحديث، ورخَّص في أن يأكل من وليها بالمعروف غير متموِّل (رواه البخاري، 2737، ومسلم، 1632، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما).

لم يعد السؤال ماذا ينتفع عمر من هذه الأرض اليوم، بل كيف تبقى نافعةً بعده لغيره. لقد قدّم مالًا نفيسًا بين يدي نبيّه ﷺ، فتعلّم كيف يُصان الأصل وتدوم منافعه. والوقف بابٌ له أحكامه وشروطه ومصارفه، لكنّ القصة تكشف كيف يمكن لحسن تدبير المال أن يكون خدمةً ممتدةً للناس. وهو من الشكر الذي يجمع حفظَ النعمة وتوجيهها إلى الخير.

وقال رسول الله ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» (رواه مسلم، 2588).

وقد قرن الحديث العفوَ بالصدقة؛ وربما كان العفو أثقلَ على النفس من بذل المال.

حتى مَن آذاك: حين تصير المغفرة أحبَّ إلى القلب

وللإحسان بابٌ قد يكون أثقل من إعطاء مالٍ محبوب: أن ترى حاجةَ مَن آذاك، ويكون لك أن تُمسك عنه معروفًا اعتدتَ صنعه، ثم يدعوك القرآن إلى شيءٍ أعظم من الاقتصار على خصومة النفس. في مثل هذا الموضع لا يكفي أن يكون المال حاضرًا، حتى يتقدم في القلب محبوبٌ آخر على ذكرى الألم.

في حديث الإفك ابتُلي أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه وأهلُ بيته بأذى شديد. وكان يجري نفقةً على مِسطح بن أُثاثة لقرابته وفقره، ثم حلف ألا ينفق عليه بعد أن كان ممن تكلم في شأن عائشة رضي الله عنها.

وفي هذه الحال نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: 22].

لم تُنكر الآية وقوع الأذى، ولم تجعل العفوَ إلغاءً لما أصاب أهلَ الصديق من ألم، لكنها فتحت للقلب بابًا أعظم مما أُغلق عليه في ساعة الجرح:

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22].

أمامَ سؤال المحبة هذا لم يُطِل أبو بكر رضي الله عنه الجواب: «بَلَى، وَاللَّهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي»، ورجع إلى النفقة التي كان يُجريها على مِسطح، وقال: «وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا» (رواه البخاري، 4750؛ ومسلم، 2770، من حديث عائشة رضي الله عنها).

ما الذي يتبعه من ماله؟

حين يكشف الأجل ما قدَّمناه

في مساءٍ عادي، وقبل أن ينتهي اليوم، يعرف المرء أحيانًا أنه مدينٌ باعتذارٍ يتصل بمال، أو بحقٍّ ينبغي رده، أو بوعدٍ قطعه لعامل. قد يكون المبلغ حاضرًا، وقد يكون صاحب الحق صامتًا. يتذكر الأمر، ثم يقول: سأفعل غدًا.

وغدًا تأتي أشغال أخرى. لا يقصد الإنسان دائمًا أن يضيع حقًّا أو يترك خيرًا؛ لكنه يطمئن إلى زمنٍ لم يُعطَ ضمانًا بأنه سيملكه. وقد يُحسن تدبير أمواله لسنوات مقبلة، ثم يترك أعظم ما يحتاج إلى التدبير: ما يريد أن يلقى الله به.

المال يُعوِّد صاحبه تدبير ما سيأتي: راتب الشهر المقبل، وحاجة الولد، وموسم التجارة. أما القرآن فيفتح له أفقًا لا تبلغه خطط المعيشة؛ يومًا يكون فيه العبد حاضرًا، ولكن باب التصرف الذي اعتاده قد أُغلق. عندئذٍ تنكشف قيمة ما اختاره حين كان قادرًا على الاختيار.

الأجل الذي يكشف قيمة ما أخّرنا

تأتي آيات سورة المنافقون مخاطبةً المؤمنين، لا لتقطعهم عن معاشهم، وإنما لتحرس ما هو أعز من المعاش:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

ثم تأخذ الآيات القارئ من زمن يستطيع فيه أن يقدم ويؤخر إلى زمن يرى فيه معنى هذا الاختيار أوضح مما رآه قط:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10].

في الآية كلمةٌ تستوقف القلب: ﴿مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. الذي أتاح للعبد أن يعطي هو الله الذي رزقه. والعبد حين يُنفق بحق لا يتفضل على ربٍّ محتاج؛ إنما يجيب دعوةَ مَن أغناه بالنعم وفتح له سبيل القرب.

ثم يصور القرآن صاحب الأجل المنقضي يطلب مهلةً قصيرة، لا ليزيد ملكه، بل ليصدق ويكون من الصالحين. عرف قيمة ما كان يستطيع فعله عندما لم يعد يستطيع فعله.

قد تكون للتأخير مصلحةٌ معتبرة؛ فيؤخر المرء نفقاتٍ ليحفظ قوت عياله، أو يؤجل عملًا صالحًا لعذرٍ صحيح. لكن بين التأجيل الذي تقتضيه المصلحة والتسويف الذي تستريح إليه النفس فرقًا تعرفه عند صدق محاسبتها. الإنسان لا يُسأل عن فرصٍ لم تُفتح له، بل يخشى على فرصٍ فُتحت له فأعرض عنها.

وسأل رجلٌ النبيَّ ﷺ: أيُّ الصدقة أعظم أجرًا؟ فأجابه: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ» (رواه البخاري، 1419؛ ومسلم، 1032). قد يكون المال أحبَّ إلى صاحبه وهو صحيحٌ يرجو طول البقاء ويتطلع إلى الزيادة؛ ففي هذه الساعة بالذات يُقبل على البذل، وتُظهر طاعته أنها تقدمت على هوى الإمساك.

ولا يجعل الحديث كثرةَ المال شرطًا لصدق البذل؛ فقد يُقبل الله من القليل ما شاء. ولا يُخرج منه أن يتصدق المرء بما يضيع واجبًا على أهله، وإنما يجعل لقرار الطاعة شرفَه حين لا تزال النفس توازن بين ما تُحبه لنفسها وما يرجوه العبد عند ربه. وإذا كان النبي ﷺ قد سمّى هذه الصدقة عظيمة الأجر في حياة الصحة والشح، فكم يضيع على الإنسان حين يتخذ من انتظار ظرفٍ أيسر عادةً لا تنتهي!

ويأتي الجواب بعد ذلك قاطعًا لكل تسويف: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 11].

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. يعلم سبحانه مَن منع حقًّا وهو قادرٌ عليه، ويعلم من قصرت يده عن الوفاء مع صدق إرادته. يعلم العمل الخفي الذي نسيه الناس، ويعلم عزم التائب الذي بدأ يصلح ما أفسد. هذه الخبرة الإلهية تورث الخوف من الخيانة، وتفتح في الوقت نفسه باب الأنس بربٍّ لا يضيع عنده صدق عبدٍ ولا جهده.

«مالي، مالي»... فما الذي بقي منه لك؟

روى مطرِّفٌ عن أبيه عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1]. ثم سمعه يقول:

«يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» (رواه مسلم، 2958).

يمكن لرجل أن يقضي عمره وهو يعرف أين وُضع كل مبلغ من ماله، ثم لا يسأل أين وضع نفسه من طاعة الله. ويمكن لامرأة تدبر شؤون بيتها بمال قليل أن تعرف مواضع حاجة أهلها، فتؤدي الواجب وتقتصد في المباح وتخرج شيئًا من طيب مالها، فتكون تلك القرارات الصغيرة مما ترجو به فضل ربها. ليست سعة الحساب هي التي صنعت الفرق؛ بل القلب الذي طلب مرضاة الله حين تصرف بالمال.

وسأل النبي ﷺ أصحابه سؤالًا يبدو جوابه بديهيًّا: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» فقالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. فقال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ» (رواه البخاري، 6442).

الذي جمعه الإنسان لنفسه قد يصبح يومًا ملكًا لغيره، أما ما قدَّمه ابتغاء وجه الله فقد اختار بنفسه وجهته قبل أن يفارقه..

وقد كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مريضًا حين سأل رسول الله ﷺ عن الوصية بماله، فلم يوافقه على إخراج المال كله، وأرشده إلى أن ترك الورثة في كفاية خيرٌ من تركهم يتكففون الناس. وقال له ﷺ: «إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ» (رواه البخاري، 2742). هنا يتبين أن تقديم الإنسان لآخرته لا يكون بإضاعة من حمّله الله مسؤوليتهم؛ فقد يكون الذي يبقيه لهم من الحلال، ويصونه من النزاع والضياع، بعضَ ما يقدمه لنفسه من العمل الصالح.

عند الحد الذي يرجع منه المال

جاء عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ» (رواه البخاري، 6514).

يتقدم المال والأهل مع الإنسان إلى الحدّ الذي أذن الله لهما أن يصلاه، ثم يرجعان ويبقى عمله. في الحديث صورةٌ لا تُنسى؛ لأننا نعرف ما يصنعه الناس من أجل ما يرجع، وقد نغفل عما نصنعه من أجل ما يبقى. بقاء العمل أن يلقى الله العبدَ بما فعله، خيرًا كان أو شرًا، وما رجاه به من وجه الله.

وفي آخر حياة رسول الله ﷺ يظهر هذا الميزان في مشهد تراه العين. قال عمرو بن الحارث رضي الله عنه: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا، إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً» (رواه البخاري، 2739). وأخبرت عائشة رضي الله عنها عن حاله عند الوفاة فقالت: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ» (رواه البخاري، 2916).

مرّت بين يديه ﷺ أموالٌ عظيمة، ثم لقي ربَّه ودرعُه مرهونةٌ في طعامٍ لأهله. كان ماله ما قدّم.

ويتسع الرجاء بما ثبت عن النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» (رواه مسلم، 1631). لم يحصر الحديث أسباب الخير الباقية في قدرة الأثرياء؛ فالعلم النافع، والتربية الصالحة، وصدقةٌ تظل منفعتها قائمةً، أبوابٌ يقدر الناس عليها بأقدارٍ مختلفة. وفي كل ذلك يتحول سؤال القلب من: كم سيبقى من مالي؟ إلى: أيُّ خيرٍ يُيسِّر الله أن يبقى من عملي؟

الحقُّ الذي لا يضيع، والحياةُ التي ينبغي أن تُقدَّم لها

حين لا تنفع زيادة المال في سداد المظلمة

قد يغيب الحق عن أعين الناس لأن صاحبه ضعيف، أو لأن من بيده المال قادرٌ على تأخير الوفاء. وفي الدنيا يستطيع الظالم أن يمحو أثرًا من ظلمه: يرد مالًا، ويصحح معاملةً، ويعتذر ممن جنى عليه. أما إذا انقضى زمن الإصلاح، فلن تكون أوراق النقد هي التي يُقضى بها ما بين العباد.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» (رواه البخاري، 2449).

لم يقل النبي ﷺ: انتظر حتى يطالبك الناس. قال: «فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ». وخصَّ اليوم بالذكر؛ لأن القدرة على رد المظلمة نعمةٌ قائمة لا ينبغي تعريضها للزوال. وصاحب الحق إنسانٌ لا مجرد رقمٍ في ذمة غيره: ربما انتظر أجرته ليُطعم أهله، أو سكتت امرأةٌ عن ميراثٍ خشية الفُرقة، أو حمل شريكٌ خسارةً لم تُكشف له حقيقتها. وحق هؤلاء في العدل قائمٌ قبل أن يُضطروا إلى الخصومة.

ثم إن النبي ﷺ لم يجعل كثرة الصلاة والصيام صكًّا يزيل حقوق الناس. سأل أصحابه: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» وبيَّن أن من أمته مَن يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة، لكنه أتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فتؤخذ حسناته للمظلومين، فإن نفدت حُملت عليه من خطاياهم ثم طُرح في النار (رواه مسلم، 2581).

كان يملك حسنات، وكان في ذمته أذى لم يزُل. هنا يُدرك مَن أحب العبادة أن من تعظيم الله تعظيمَ ما حرَّمه من ظلم عباده. واليد التي تؤدي الحقوق في الدنيا لا تتفضل على أصحابها، لكنها تُنجّي صاحبها — برجاء رحمة الله — من حمل مظالم كان يستطيع ردها.

إذا حملتَ في ذمتك حقًا تعرفه، فقد يكون أشرف ما تبدأ به بعد القراءة أن توصله إلى صاحبه. وإن جهلتَ مقدار الحق فاطلب بيانًا من أهل الخبرة، وإن عجزتَ عن السداد فاتق الله فيما قدرت عليه، وأظهر صدق السعي ولا تتعلل بالعجز لتؤجل الممكن.

يوم يقول أحدهم: ما أغنى عني ماليه

وصف القرآن رجلًا أُوتي كتابه بشماله، فأخذته الحسرة حتى قال:

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 28-29].

المال الذي كان في الدنيا سببًا لدفع بعض الحاجات لم يملك في ذلك الموقف أن يردّ عنه ما استحقه. ويجيء من دعاء إبراهيم عليه السلام ميزانٌ يسبق به المرء هذا اليوم:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۜ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89].

فسَّر الطبري القلب السليم هنا بسلامته من الشك في توحيد الله والبعث. وهذا أصلٌ يحسم الترتيب كله: لا ينفع المالُ صاحبَه إذا اختلّ أصل الإيمان، ولا يصلح المالُ فساد القلب بمجرد كثرته. فإذا أحبَّ العبد ربَّه، وصدق وعده ووعيده، صار من مقتضى إيمانه ألا يجعل رزقه ستارًا لغفلةٍ أو ظلم. وتظهر سلامة القلب في تقديم ما يحبه الله ولو فاتت صاحبه زيادةٌ في المال.

وأيُّ عبوديةٍ أشرف من أن يقف الإنسان أمام ربحٍ مشبوهٍ فيتركه لله، أو يسمع شكوى صاحب حقٍّ فينصفه، أو يرى نعمةً فيشكر الذي أعطاها، أو يجد باب إحسانٍ خفيًّا فيدخله؟

وإن عظم تقصير الإنسان في ماله فلا يظن أن باب الرجوع إلى الله قد أُغلق. قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]. ولم يقف السياق عند نفي القنوط؛ بل دعا بعدها إلى الإنابة والإسلام له قبل مجيء العذاب [الزمر: 54]. فمغفرة الله تُطمع المذنب في التوبة، لا في إبقاء المظلمة في يدِه. ومن صدق الإنابة أن يعود الحق إلى صاحبه بحسب القدرة والطريق المشروع.

اليوم الذي ما زلت تملكه

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18]. طلب منك أن تنظر، لا إلى ما ستجمعه لغد الدنيا وحده، بل إلى ما قدمت

لغد اللقاء. وتأمل اجتماع الأمر بالتقوى مع خبرته سبحانه بعملك؛ فما تدفعه إلى الناس من حق، وما تمسكه عنهم من ظلم، وما ترجوه في السر، كله داخل في علمه.

ومن أثقله دَيْنٌ يعجز عن وفائه فليعلم أن ربَّه يميز بين العاجز الصادق وبين المماطل القادر. اعرف ما تستطيع، وأخبر من يلزم إخبارُه بحالك بصدق، واسْعَ في الوفاء، وسلِ الله المعونة. إن الله الذي أمر بإنظار المعسر هو الذي يعلم صدقك، ورزقك كله بيده. وقد يلقى العبدُ ربَّه بصدقٍ وأمانةٍ عظيمين مع قلة ذات يده، وهو يرجو رحمته ولا يملك ما يبذله من سعة.

يومَ يتذكّر الإنسان

ولا تقف سورة الفجر عند ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾؛ فالإنسان الذي قال ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، ثم لم يُكرم اليتيم، ولم يحضّ على طعام المسكين، وأكل التراث، تمضي به الآيات إلى يومٍ لا يُسأل فيه عمّا في يده، بل عمّا قدَّمت يده:

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: 21-23].

هذا هو اليوم الذي لا تحسم فيه وفرة المال شيئًا من أمر الجزاء، ولا ينفع فيه ما كان يصفق له الناس إذا لم يكن لله. تتبين الأعمال، ويحضر الندم حين لا تعود الذكرى طريقًا إلى فعلٍ جديد. ثم يسمع القارئ جملةً لا ينبغي أن تمرّ بقلبه دون أن توقظه:

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24].

﴿لِحَيَاتِي﴾. سمَّى الدارَ المقبلةَ حياته حين أدرك حقيقتها، وهي التي كان يستطيع أن يعمل لها في الدنيا. قال الطبري في تفسير الآية: إنها حسرةٌ على تفريطه في الصالحات التي تنفعه في حياةٍ لا موت بعدها. هنا تنقلب صورة الغنى والفقر: المسكين حقًا من جاء ذلك اليوم ولم يُقدِّم لما ينفعه، ولو كان قد وسَّع على نفسه في الدنيا ما شاء.

أما أنت فتسمع الآية وقد بقي لك من الأجل ما لا تعلم مقداره. إن كان في يدك مالٌ لغيرك فلا تنتظر يومًا تُمنع فيه القدرة على رده. وإن كان في كسبك ما يُغضب الله فلا تُؤخِّر الخروج منه حين تقدر. وإن رزقك الله مالًا حلالًا فاستعمله وأحسن حفظه، واجعل منه ما تقرب به إليه. لا تملك ضمانَ قبول عملك، لكنك تملك أن تسأل الله الإعانة وأن تأخذ في أسباب الصدق والتوبة.

ثم يشتد وعيد سورة الفجر: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: 25-26]. فالعبد لا يستخف بما نهاه الله عنه، ولا يظن أن لطفَ العبارة يبدل حقيقة الحساب. لكن السورة التي كشفت الحسبان الكاذب للإكرام والإهانة، لم تجعل آخر ما يسمعه القارئ صوت الحسرة والوعيد، أبقت في ختامها نداءً يتجه إليه رجاء المؤمن وتطلعه.

نداء الكرامة الباقية

وفي ختام السورة يجيء خطابٌ آخر غير خطاب مَن حسره المال: خطابُ النفس المطمئنة. نقل الطبري في تفسيرها أنها اطمأنت إلى وعد الله لأهل الإيمان فصدَّقت به، وأورد في معناها إيقانها بأن الله ربها وانقيادها لأمره. وفي هذا النداء يتعلّق الرجاء بكرامةٍ يعطيها الله لعباده المؤمنين برحمته وفضله.

ويعلو على سؤال الناس عن مقدار ما جمع المرء سؤالٌ لا تنتهي قيمته بانتهاء حياته: هل كان يحب رضا الله أكثر مما يحب أن يزيد ماله؟ يرجو المؤمن رحمة ربه، ويسأله أن يغفر تقصيره ويتقبّل صالح عمله، حتى يسمع النداء الذي تختم به السورة:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27-30].

كتب سلسلة موازين القرآن

1 **هو الله** — كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟

2 **إلا ليعبدون** — كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟

3 **زادهم هدى** — مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة

4 **إن الشيطان لكم عدو** — فاتخذوه عدوًا

5 **ولنبلونكم** — رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها

6 **اعلموا أنما الحياة الدنيا** — كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك؟

7 **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** — كيف يعيد القرآن الصلة بالمال؟

8 **تلك الدار الآخرة** — الميزان الذي يعيد وزن كل شيء

9 **قد أفلح المؤمنون** — كيف يزن القرآن ما نعدّه فوزًا وخسارة؟

10 **وقولوا للناس حسنًا** - كيف يبني القرآن علاقتك بالناس؟

11 **كونوا قوامين بالقسط** — كيف يجعل القرآن العدل دينًا؟

12 **الذين نافقوا** — من فساد الباطن إلى إفساد الواقع

13 **وتلك الأيام نداولها بين الناس** -كيف يعلّمنا القرآن قراءة حركة الأيام؟

14 **إن وعد الله حق** — كيف يعيد اليقين بوعد الله وزن حياتك؟

15 **إن هذا القرآن** — كيف يزن القرآن صلتك به؟

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية
- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية
- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس